

النسخ مع الشيطان

المقطة الأولى من رحلة الصدام الكوني

عبد الحفيظ الصولاني

النسكع مع الشيطان

المحطة الأولى من رحلة الصدام الكوني

عبد الحق الصولاحي

الإهادء

إلى كل الذين أسأت إليهم قبل مراجعتي و تراجعاتي

سيدي القارئ

تسكعت مع الشيطان طويلا دون أن أكتشف وجوده ، ثم تعرفت عليه و حاربته ، ثم صادقته فترة من عمري و عملت تحت لوائه ، ثم انقلب عليه لأنجو بنفسي ، و ما سأكتبه سيدي القارئ عن محطاتي الخمس التي قطعتها في رحلتي القصيرة ، رحلة الصدام مع الشيطان ، يمكن تلخيصه في كلمتين لو كنت قادرا على إسقاطهما على واقعك و العمل بهما فأنت في غنى عن قراءة هذه المذكرات ، بل إنك لو فعلت لكنك حلقة عظيمة في سلسلة تاريخ الإنسان حتى لو لم يسمع بك أحد من أهل الأرض .

سيدي القارئ ثمرة رحلتي تتلخص في كلمتي « نفسك أولاً » وإليك التفاصيل .

اسمي شعيب مودود ، عمري سبعة و ثلاثين سنة ، أقيم حاليا في سجن بالمغرب ، الحكم إعدام ، التهمة إسلام حركي .

قبل أن أبدأ في سرد الأحداث أريد منك أمريين .

الأول : اعلم أنني تراجعت عن كل قناعاتي السابقة بما فيها ما كنت اعتقده في المحطة الرابعة التي أنا بسببيها الآن في السجن ، و أعترف أنها كانت محطات غير صائبة بعيدة عن الحق و لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما خضت بحرها اللجلج ، و إنني لا أجيئ لك محاسبي و انتقادي عليها .

الثاني : يمكنك مجاذبي في محطتي الأخيرة و هي التي أخر بها لأنها ختام رحلتي ، و لأنها أيضا جعلتني أحب الإنسان و أعرف قيمة الإنسان و أعزز كوني أنتمي إلى الإنسان .

نعم سيدي القارئ لقد قررت الانتماء إلى أمة الإنسان. لا أكلمك بالألغاز ولكن تابع معي قصتي و ستعلم أسرارا محاولة كشفها سببت القتل لأناسي كثيرا كما أنك ستحصل على معارف توارثتها الصدور و منعت منها السطور ، ساعطيك سيدي القارئ مفتاحا لجميع الألغاز الكونية ، حتى التي لم أسمع بها ، و حتى التي لم تتشكل بعد .

سيدي القارئ قد لا تصلك مذكرات رحلتي و قد تصلك محرفة .

بداية المحطة

السادس من غشت سنة ألف و تسعمائة و ثمانية و تسعين ، توجب على مغادرة قريتي الواقعة بإقليم دكالة و الانقال إلى حي هامشي بضواحي مدينة الدار البيضاء ، أو ما يسمى بالدرجة المغربية كاريـان للعيش مع عمتي نعيمة و الهدف هو موافـلة دراستي الثانوية و دون الخوض في الأسباب فقد كان هذا هو الخيار الوحيد المتاح إذا ما أردتـ موافـلة دراستـي .

في حـي كولومبيـا كانتـ نقطـن عـائلـة يـحيـطـهاـ الغـمـوضـ منـ كلـ جـانـبـ ، تـعرـفـ بـينـ سـكـانـ الحـيـ بـعـائلـةـ القـطـطـ ، وـ سـبـبـ تـلـكـ التـسـميـةـ يـعـودـ إـلـىـ أـنـ جـمـيعـ أـفـرـادـ تـلـكـ العـائلـةـ عـيـونـهـمـ زـرـقاءـ تـشـبـهـ عـيـونـ القـطـطـ ، وـ كـانـتـ تـلـكـ العـائلـةـ تـتـكـونـ مـنـ أـبـ السـيـدـ عـبـدـ الـقـدـوسـ الـمـروـانـيـ ، كـانـ فـيـ الـثـالـثـةـ وـ الـسـتـينـ مـنـ عـمـرـهـ ، وـ كـانـ لـاـ يـغـادـرـ الـبـيـتـ عـلـىـ الإـلـاطـلـقـ كـماـ رـاجـتـ بـعـضـ الـأـقاـوـيلـ عـلـىـ أـنـهـ كـانـ فـيـ مـاـ مـضـىـ مـنـ أـثـرـيـاءـ الـبـلـدـ . أـمـاـ الـأـمـ فـكـانـ الجـمـيعـ يـعـرـفـونـ أـنـهـاـ تـوـفـيـتـ قـبـلـ حلـولـهـمـ بـالـحـيـ .

أـكـبـرـ أـبـنـاءـ الـعـائلـةـ كـانـ اـسـمـهـ حـمـزـةـ ، تـاجـرـ حـشـيشـ مـعـرـوفـ فـيـ الـدارـ الـبـيـضـاءـ يـبـلـغـ مـنـ عـمـرـ اـثـنـيـنـ وـ ثـلـاثـيـنـ سـنـةـ ، كـانـ يـتـكـلـمـ الـلـغـةـ الـأـنـجـلـيزـيـةـ وـ الـلـغـةـ الـفـرـنـسـيـةـ بـطـلـاقـةـ وـ يـسـرـ وـ لـاـ أـحـدـ مـنـ سـكـانـ الحـيـ كـانـ يـعـرـفـ أـيـنـ تـعـلـمـهـاـ .

الـابـنـ الثـالـثـ أـحـمـدـ الـمـرـوـانـيـ كـانـ عـمـرـهـ تـسـعـةـ وـ عـشـرـونـ سـنـةـ ، كـانـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ زـرـقةـ عـيـنـيهـ يـمـلـكـ شـعـراـ أـشـقـرـاـ طـوـيـلاـ غـالـبـاـ مـاـ يـرـسـلـهـ خـلـفـهـ إـلـاـ فـيـ حـالـاتـ تـأـهـبـهـ لـلـعـرـاـكـ فـإـنـهـ كـانـ يـعـطـيـهـ بـقـبـعـةـ أـوـ غـيرـهـ .

الـابـنـ الثـالـثـ أـحـمـدـ الـمـرـوـانـيـ سـتـةـ وـ عـشـرـونـ سـنـةـ ، أـكـثـرـ إـخـوـتـهـ تـهـورـاـ وـ إـثـارـةـ لـلـمـتـاعـبـ سـرـيعـ الغـضـبـ وـ سـرـيعـ الـفـتـكـ ، تـخـشـاهـ كـلـ سـاـكـنـةـ الحـيـ ، كـانـ لـاـ يـتـاجـرـ بـالـحـشـيشـ إـلـاـ إـذـاـ تـصـادـفـ أـنـ أـخـوـيـهـ وـ قـرـيبـهـ مـنـيـرـ كـانـواـ جـمـيعـاـ فـيـ السـجـنـ . وـ مـنـيـرـ هـذـاـ كـانـ يـعـيـشـ فـيـ بـيـتـ الـمـرـوـانـيـ عـمـرـهـ قـرـيبـ مـنـ عـمـرـ عـادـلـ وـ لـمـ يـكـنـ سـكـانـ الحـيـ يـعـلـمـونـ صـلـةـ الـقـرـابةـ الـتـيـ تـرـبـطـهـ بـعـائلـةـ الـمـرـوـانـيـ فـقـطـ بـعـضـ الـأـقاـوـيلـ مـنـ هـنـاـ أـوـ مـنـ هـنـاكـ .

وـ أـخـيـرـاـ صـفـيـةـ الـمـرـوـانـيـ وـ هـيـ الـبـنـتـ الصـغـرـىـ وـ الـوـحـيدـةـ فـيـ الـأـسـرـةـ ، اـثـنـانـ وـ عـشـرـونـ سـنـةـ تـشـبـهـ عـادـلـ كـثـيـراـ وـ كـانـهـ أـخـتـهـ التـوـأمـ ، غـيرـ أـنـهـ كـانـ نـحـيفـةـ بـصـورـةـ لـافـتـةـ وـ السـبـبـ هـوـ أـنـهـ كـانـ تـعـانـيـ مـنـ مـرـضـ مـزـمـنـ عـلـىـ مـسـتـوـىـ الـقـلـبـ ، لـمـ تـشـأـ أـنـ تـخـوـضـ فـيـ تـفـاصـيـلـهـ يـوـمـاـ وـ لـنـ نـفـلـ الـآنـ .

كـانـ مـعـظـمـ أـوـ كـلـ شـبـابـ الحـيـ الـفـقـيرـ يـخـضـعـونـ لـلـقـطـطـ بـصـورـةـ غـيرـ طـبـيعـيـةـ ، الطـبـيـونـ وـ الـمـنـحرـفـونـ عـلـىـ السـوـاءـ ، فالـطـيـبـونـ يـكـنـونـ لـهـمـ اـحـترـامـ غـرـبـيـ ، وـ الـمـنـحرـفـونـ يـدـيـنـونـ لـهـمـ بـوـلـاءـ مـرـيـبـ ، وـ مـنـ الـصـنـفـ الثـالـثـيـ كـانـ مـبـارـكـ اـبـنـ عـمـتـيـ ، وـ هـوـ أـكـبـرـ أـبـنـاءـ عـمـتـيـ وـ كـانـ عـمـرـهـ سـبـعـةـ وـ عـشـرـونـ سـنـةـ ثـمـ تـلـيـهـ فـاطـمـةـ ثـلـاثـةـ وـ عـشـرـونـ سـنـةـ وـ كـانـتـ صـدـيقـةـ لـصـفـيـةـ الـمـرـوـانـيـ ، بلـ صـدـيقـتـهـ الـوـحـيدـةـ وـ لـمـ يـدـخـلـ بـيـتـ الـمـرـوـانـيـ مـنـ سـكـانـ الحـيـ إـلـاـ فـاطـمـةـ وـ أـنـاـ فـيـمـاـ بـعـدـ وـ هـذـاـ عـلـىـ حـسـبـ عـلـمـيـ ، أـمـاـ أـصـغـرـ أـبـنـاءـ عـمـتـيـ فـكـانـ رـشـيدـ وـ عـمـرـهـ ثـمـانـيـةـ سـنـوـاتـ .

فـيـ الـوقـتـ الـذـيـ صـرـتـ فـيـهـ مـنـ سـكـانـ حـيـ كـولـومـبـياـ وـ كـانـ ذـالـكـ اـضـطـرـارـاـ كـمـاـ أـسـلـفـ وـ لـيـسـ بـطـولـةـ مـنـيـ ، كـانـ حـمـزـةـ الـمـرـوـانـيـ يـقـضـيـ شـهـورـهـ الـثـلـاثـةـ الـأـخـيـرـةـ فـيـ السـجـنـ ، وـ كـانـ مـدـةـ مـحـكـومـيـتـهـ سـنـتـانـ ، كـانـ

زعيماً الحي حين ذاك إذا صحت هذه التسمية هو عادل، ذاك الشاب كان ضحكة أكثر من كلامه و كان رفقائه يتنافسون على إضحاكه ، و كان يضحك من أسفاف الأشياء ، كان لقائي الأول به بعد قدومي إلى الحي بحوالي خمسة عشرة يوما ، كنت عائداً من الثانوية برفقة فاطمة ابنة عمتي و فجأة ضربت بيدها على صدرها و قالت :

– مبارك .

و ذهبت تجري من خلال زفاف ضيق ، تعجبت من فعلها و تابعتها بنظراتي إلى أن توارت ، و لـما حاولت اكتشاف ما الذي رأته و سبب لها هذا الذعر رأيت على بعد حوالي مائة متر عن يميني حلقة مكونة من مجموعة من الشباب ، ستة بالضبط ، أمعنت النظر و تبين لي أن اثنان منهم يتعاركان ، كان أحدهما مبارك ابن عمتي ، ركضت نحوهم و في نيتني فض الشجار لا المشاركة فيه ، و لـما اقتربت منهم مسافة عشرين متراً اعترض طريق شابان من الستة و قد أشهر كل واحد منها سكيناً من الحجم الكبير ، و هذا ما جعلني أقف متسمراً في مكاني ليتبين لي أن مبارك لم يكن يتشاجر و إنما كان واقفاً يتلقى الصفعات من خصمه دون حراك ، أغضبني خصوصه و استسلامه فتناسيت الشابين و السكينتين و ثرت ، تحركت و أنا نصف واعي بما يدور حولي لأجد في يدي الاتنين حجرين لا يأس بهما ، صحت في الشابين بإقسام الطريق و مهدداً المعتمدي بتفجير رأسه إن لم يتوقف عن صفع مبارك .

التفت إلى عادل بطريقة روبوتية و ركز بصره في عيني ، لم تكن نظرته تحمل أي مشاعر لا غضب لا تحدي لا خوف لا شيء ، كانت نظرة باردة جعلتني أرجع إلى وعيي . رفع يده و أشار إلى أحد مرافقيه و كان قد همّ بضربي بحجارة من الخلف أن يتوقف و في اللحظة الأخيرة و لو لم يفعل لعلم الله أين كنت أنا الآن ، ثم أدار ظهره لي و صفع مبارك صفة أخيرة ، فكررت تهديدي ، و قبل أن أتمه كان عادل يسير نحوه و هو يبتسم قال بهدوء :

– اضرب

حاولت أن أتراجع غير أنني تسمّرت بسبب سلطان سمعته و سلطان جماله و سلطان نظرته العميقة و ظلت في مكاني إلى أن صار بالقرب مني .

قال مبارك :

– دعه يا عادل لا تقحمه .

قال عادل :

– لم أقحمه هو من اقتحم

ثم قال لي بصوت منخفض ربما لم أسمعه إلا أنا و هو :

– هل تدافع عنه لأنه ابن عمتك ؟

– أدافعاً عنه لأنه عاجز عن الدفاع عن نفسه .

– هذا جميل إذا كنت قادراً على الدفاع عن نفسك أولاً .

– أنا قادر على الدفاع عن نفسي و لا تهمني بعد ذلك الخسارة و لا النصر .

- في شجار مثل هذا لا يوجد نصر وإنما خسارة و خسارة .

لم أفهم قصده في ذالك اليوم ولم أحرا جوابا ، وعلى ما أظن أنه كان يستعد لتوجيه لكتمة لي قبل أن يهمس له الشاب الذي هم بضربي بالحجر .

- عادل صفية قادمة

تغيرت ملامحه و ظهر الغضب عليه لأول مرة ، قال للشاب :

- منير خذ الشباب و مبارك و غادروا بسرعة .

ثم التفت إلىّ وقال :

- لم ننتهي بعدو لكن انقلع الآن .

حاول مبارك جرّي لمغادرة المكان ، سحبت يدي من قبضته ، كنت أشعر اتجاهه بالحقن ، طأطا رأسه و غادر بعد أن أحس بحقني عليه . وكان أنه لما رأت فاطمة أخاها يضرب من طرف عادل و رفقاء جاءت ردة فعلها طبيعيا بأن ذهبت تستتجد بأخت المعتمدي ، صديقتها الحميّة و كان تصرفها خيرا بالنسبة لأخيها و بالنسبة لي أنا أيضا . وقفت صفية تكلم عادل بهدوء وكانت كما أسلفت تشبهه كثيرا ، غير أنها كانت نحيفة جدا ، أدهشتني خلقتها فلم يسبق لي أن رأيت إنسانا بذلك البياض ، بل بذلك الإشراق مع ذلك الشحوب ، عاتبته فاطمة و أثر الخوف لم يفارقها بعد ، قالت :

- لم أكن أحسبك مثيرا للمتابعة ، لماذا تدخلت في الخصومة ؟

استغربت من مهاجمتها لي بذلك الشكل ، لم تتنبه لاستغرابي ، تابعت :

- يجب عليك العودة إلى قريتك قبل أن يحمل خالي مسؤولية ما قد

يصيبك لأمي .

و في الوقت الذي كنت أحارو فيه استيعاب كلام فاطمة الغير متوازن تكلم عادل وقد زال عنه الغضب :

- فاطمة ، رافقني صفية إلى البيت .

ذهبت فاطمة و صفية من حيث أتيتا ، و سار عادل حيث ذهب الشباب الخمسة ، و تحركت بطريقة ميكانيكية نحو بيت عمتي و أنا أشعر بالحيرة ، هل ما فعلته كان خطأ أم صوابا ، قابلت عمتي في الطريق فقد وصلتها أخبار الشجار ، لم تسأل عن مبارك و لا عن فاطمة ، سألتني .

- هل أنت بخير ؟

و شرعت تطوف بي فلما أطمأنت أنني لا زلت بكامل أطرافي هاجمتني كما فعلت فاطمة من قبل .

- يا ابن أخي لو كنت أعلم أنك مثير للمتابعة لما وافقت على استضافتك لم يمض شهر واحد على قدومك و هنا أنت تزيد أن ... ، اسمع يا شعيب أنت هنا للدراسة و لا علاقة لك بأحداث الحي ، و إذا مررت هذه الحادثة على خير فستكون إنذارك الأول و الأخير .

لم أستطع أن أرد عليها ولو بحرف واحد و هذا ما جعلها تلطف خطابها فيما بعد ، ظللت مدة بعد الحادث أحاول اكتشاف مكان خطأي و بعد جهد مضني توصلت إلى استنتاجين محتملين ، الأول هو أن عائلة القبط هاته استحوذت بالرعب على قلوب سكان حي كولومبيا الفقير ، و الثاني هو أن داخل الأحياء الشعبية تعالج المشاكل بطريقة فردية دون تدخل عصبية القرابة ، و طبعا كان كلا الاستنتاجين خاطئين ، أما الحقيقة التي علمتها فيما بعد فهي أن أسرة عمني ، كانت تعلم أن الذي يتجرأ على مصادمة عادل و تحديه ، إذا استطاع النجاة من شر منير فإنه لن يفلت من بطش أحمد ، و كانت عمني متيقنة أنه متى سمع أحمد بالخبر فإنه سيسعى على الفور ل يجعل مني عبرة . و هذا ما جعلها تترجاني صبيحة اليوم التالي أن لا أذهب إلى الثانوية ، غير أن كبرياتي جعلني أصر على الذهاب ، و عند عودتي بعد الدوام وجدتها تنتظرني على رأس الزفاف و ظل الأمر على ذلك الحال لبضعة أيام إلى أن تم نسيان الحادث .

أما مبارك فقد جلس إلى جواري ذات مساء حينما كنت أراجع دروسني و قال :

– لم أعجز عن الرد عليه لأنني ضعيف أو جبان .

ابتسمت باستهزاء .

– و إنما عجزت عن الرد عليه لأنه هو الشخص الوحيد الذي وقف بجانبنا يوم أن تعرض والذي قبل سنتين لكسر على مستوى الحوض في حادثة شغل ، هل تعلم ؟ لقد طلب جبر الكسر عملية جراحية تكلفتها خمسة وعشرون ألف درهم ، جمع لنا سكان الحي حوالي عشرة آلاف درهم و لكنها كانت غير كافية لإجراء العملية ، أما عادل فقد أحضر لي تحت جنح الظلام عشرين ألف درهم و اشترط عليّ أن لا أخبر أحدا بالأمر .

– و هل الجميل يجعلك تتبعك للحسن ؟

– ليس الجميل و إنما إقراراري بالخيانة ، لقد قبضت عليّ الشرطة و أذعنـت لأساليـبها و وقعت على محضر أعترـف فيه أن عادل يتاجر بالحشـيش و قد اشتريـتها منه مـرارا .

– و هل اشتريـتها منه بالـفعل ؟

– أنا أحـصل علىـ الحشـيش بالـمجـان .

لم أستطع فهم طبيعة العلاقة بين هؤلاء الأشخاص ، ولم أعد أريد التفكير في ذلك وأخذت إنذار عمني على محمل الجد و مضيت أطوي الأيام إلى أن اعترض طريقي ذات يوم شاب برفقة فتاة ، كانت عيناه زرقاوـان و شـعره أـشقر كما أن بـياضـه كان مشـروـبا بـحـمـرة و جـسـمه مـمـتـلـئ قـيـاسـا بـطـولـه المـتوـسـط ، أـشارـ إلى و قال :

– شـعـيب ؟

– بشـحـمـه و لـحـمـه .

– هل عـرـفتـ منـ أـكـونـ ؟

- أظن أنك أحمد المرواني .

- كيف عرفت ؟

- لأنهم أخبروني أنه لا بد وأن تسعى لفعل مشكلة معي ، و لأنك تشبه القطط .

قهقهة الفتاة .

- ليس مشكلة ، ولكن تغيير مسار حياتك إلى الأسوأ .

- مسار حياتي ليس بيدي .

- ربما تكون يدي سبباً فاعلاً فيه .

- لقد مررت بضعة أيام على الحادث وأظنتني تسرعت ذلك اليوم ، ولا أريد الاستمرار في هذه السخافات ، وأعتذر منك و من أخيك .

ابتسم بمكر وقال :

- يا شعيب ، مساء ذلك اليوم وصلني خبر الشجار وشعرت بغضب شديد ، و تولدت لدي رغبة في الانتقام من مبارك و ابن خاله القروي ، و قبل أن أخطو خطوة واحدة وجدت أخي عادل يسحبني بعيداً عن أصدقائي . قال لي حينذاك يا أحمد مبارك نال عقابه و القروي ظريف و تدخله كان غريزياً و ليس عن حقد ، كما أن صفية و فاطمة في الموضوع و أرجوك أن تظل بعيداً .

- غريزيا !

- أنا أيضاً لم أفهم ماذا كان يقصد ، ولا أهتم بذلك ، فعادل حاصل على الإجازة في علم الاجتماع و فلسفته لا ترود لي ، و كلمة أرجوك منه كافية لتجعلني أهش و أبس في وجهك ما لم تكرر تدخلك الغريزي .

- طيب ، لن أفعل .

- نحن أصدقاء الآن يمكنك الذهاب .

في مساء ذلك اليوم سألت مبارك إذا ما كان يعلم عن إجازة عادل في علم الاجتماع ، و كان جوابه انه لا علم له بذلك و كل ما يعرفه هو أن عادل لم يكن برفقة أسرته عندما انتقلوا للعيش في كولومبيا قبل اثنتا عشرة سنة ، و أنه التحق بهم بعد سنة من قدمهم .

من لا يفكر لا يغادر القطيع

في السنة الأولى ثانوي كان أستاذي في مادة الاجتماعيات السيد عبد المجيد الخاول ، ويلقبه الطلبة بأدونيس ، وقد صادف أن قام هذا الأدونيس بتأليف كتاب هزيل حشاح بمقطفات معظمها من الجرائد ، وليس له فيه إلا بعض التعقيبات السخيفة، أسماء قصور لغة العرب عن احتواء فنون الغرب .

و قام بطبعه على نفقاته الخاصة وألزم جميع تلامذته و بكل الطرق بشراء نسخة منه ، وقد تيسر لي أن استعرته من أحد زملائي في بداية الموسم و قرأته في تلك الليلة نفسها و أعدته إليه في الصباح التالي ، لم يصدق زميلي أنني قرأتة بتلك السرعة ، و الحقيقة هي أنني قرأتة لأنني لا أملك كتابا غيره أقرأها في ذلك الوقت و لأن صفحاته لا تتجاوز المائة و خمسين صفحة ، كان لأدونيس لائحة بأسماء الذين اقتنوا مؤلفه ، و حدث ما كنت أتوقعه ، تصفح لائحة و نادى :

– شعيب مودود .

– حاضر .

– أنت لم تحصل على نسختك من كتاب قصور لغة العرب .

– لا أريدها أستاذ .

ضحك زملائي و أحمر وجه الأستاذ و أدركت فظاظة إجابتي فتداركت .

– لأنني قرأت المؤلف من قبل أستاذ .

– جميل ، و لكن يجب أن تكون عندك نسخة منه تعتمدتها كمراجع .

– لا يصلح أن يكون مرجعا .

ضحك زملائي و قام أدونيس من على مقعده و تداركت :

– بالنسبة لي أستاذ .

– لماذا ؟

– لأنني أظن أن اللغة العربية ليست بذلك السوء .

ضحك الطلبة و ضحك الأستاذ..... باستهزاء .

– إذا فكتابي بالنسبة إليك افتراء على تلك اللغة العقيم .

– لا ليس افتراءا عليها و إنما جهلا بها .

لم يضحك الطلبة و صاح بعضهم باستهجان وظل الجميع ينظرون إلى بتعجب ، لأنهم لم يتوقعوا من الطالب القرولي أن يجادل أدو نيس في سبب فخره و افتخاره .

– شعيب مودود أثبت جهلي بلغة أبي جهل و أمامك أسبوعا ، وأريده بحثا مستفيضا و لا أحبد رؤيتك في حصتي إلا و البحث في يدك .

طردت من الحصة و انتشر خبر المشادة الكلامية بين طالب السنة الأولى آداب و أدونيس ، ليصل الخبر إلى مسامع ابنة عمتى فاطمة التي كانت بالسنة الثالثة علوم تجريبية ، لما أخبرتني عن علمها بما حدث كنت على استعدادا لتقابل تأنيبها ، لأنني و بصرامة أوقعت نفسي في مشكلة كنت في غنى عنها ، غير أنها لم تفعل ، بل و على العكس من ذلك أبدت إعجابا كبيرا بموقفي و عرضت على المساعدة بحماس كبير .

وهذا ما جعلني أفكر جديا في البحث الذي فرض علي ، كانت أفكار فاطمة في المسألة واضحة مباشرة بسيطة وصادمة بالنسبة لي و الفضل في ذلك يعود كما سنعلم لمعلمتها صفة المرواني أنجزنا مقدمة ليست بالسيئة ، وفي الوقت الذي افترحت فيه استعارة المراجع الضرورية من مكتبة الثانوية ، افترحت فاطمة أن تستعير المراجع من عند صديقها صفيه ، و قبل أن أستفسر أوضحت لي أنه يوجد في منزل المرواني مكتبة تحوي كتبًا أكثر من التي في مكتبة الثانوية .

في مساء ذلك اليوم عادت فاطمة تحمل مجموعة من الكتب ، كان أبرزها ثلاثة أعداد من مجلة شهرية ابتدأ صدورها من العراق سنة ألف و تسعمائة و أحد عشرة اسمها لغة العرب ، كانت تلك المراجع كافية لإنجاز بحث يكشف سخافة الخاول و تقاهة مؤلفه .

ولندع البحث جانبا لبعض الوقت لأشير إلى أنني تفاجأت من التناقضات التي تحيط بعائلة القلط ، وهذا ما جعلني أغتنم فرصة مشاركة فاطمة لي في البحث للاستفسار عن ذالكم البيت ، وقد عرفت أن الأب كان موظفا كبيرا ، أما الأم فقد ثُوفيت في ظروف غامضة ، وأن حمزة و عادل تلقيا تعليمًا عاليًا في ما مضى و أحمد مارس الملاكمه لحوالي سنتين و ذلك قبل التحاقي بهم كولومبيا ، أما صفيه فإنها لم تلتحق بالمدرسة إلا لست سنوات ، و لكنها صارت بفضل مطالعتها المستمرة . أكثر ثقاقة من أدونيس نفسه ، و كذلك علمت أن منير صديق عادل منذ الطفولة و أنهم ترعرعا في نفس الحي و هو كما سنعلم هي راقى بوسط الدار البيضاء يسمى الوازيس . كما استشعرت من كلام فاطمة أن أبناء المرواني و خصوصا حمزة و عادل يكرهون السيد عبد القدوس ، و أنهم لا يتكلمون معه إلا نادرا ، أما عن مصاريف البيت فالسيد عبد القدوس هو من يتكلف بها ، و ذلك بفضل تأجيره لمحليين تجاريين يقعان بشارع في وسط سباتة ، و أن من يحضر الإيجار هو منير أو أحمد في بعض الأحيان ، و صفيه هي المسئولة عن تدبیر نفقات البيت . سُررت لما أخبرتني فاطمة أن صفيه ضحكت لما علمت بجدالي مع أدو نيس ، وأنها لما طلبت المساعدة من السيد عبد القدوس في اختيار المراجع المناسبة ابتسם هو الآخر لما علمه و قال :

– الدهماء لا يشعرون بالشيطان حتى ولو أمسك بمخنفهم .

و لما سألتها عن مقصده من هذا القول قالت :

- و من يدري فكلام آل مرواني كله مطسم ، وقد طلبت مني صفيحة الاطلاع على البحث إذا ما ثم انجازه.

و بالعودة إلى طامة البحث ، فقد ظلت طيلة خمسة أيام أنسج في الفقرات محاولاً الرابط فيما بينها ، غير أن تفكيري شغله قول المرواني الأب : « الدهماء لا يشعرون بالشيطان حتى ولو أمسك بمخنفهم » وبعد تأمل طويل خلصت إلى أن سبب اهتمامي بهذا القول يعود إلى إحساسي بأن المرواني قال تلك الكلمات و هو على قمة جبل شاهق و في سفح الجبل يوجد الدهماء و أنا من بينهم ، جعلني هذا الشعور أحس بغضب شديد و رغبة في الثورة على الأستاذ الخاول الذي حاول إرغامي على قبول أفكار اقتنع بها فسعى إلى تسوييقها معتمداً على سلطته كأستاذ ، فعمدت إلى أوراق البحث و مزقتها ، و أخذت ورقة منفردة و شرعت بالكتابية ، و لما انتهيت كانت الحصيلة صفحة و بضعة أسطر .

في صبيحة اليوم الموعود أعطيت الورقة لفاطمة و أعلمتها بالذى فعلته بأوراق البحث ، لم أهتم لردة فعلها الغاضبة ، فقد كنتأشعر ب تمام الرضا على ما أنا مقدم عليه ، أخذت مني الورقة بطريقة غير لبقة و خرجت وبعد ربع ساعة عادت بغير الوجه الذي ذهبت به .

- لقد قرأت صفيحة الورقة مرتين ثم قالت يجب أن ينظر أبي إلى هذا .

- و ماذا فعل السيد المرواني ؟

- قال بعد أن قرأ الورقة أظنه خارج القطيع .

- أظنه خارج القطيع !

- الأغرب من ذلك هو أن صفيحة حركت رأسها بالإيجاب تأييداً لكلامه ثم قالت (و يصدق عليه مرة أخرى قول غوته من لا يفكر يوهب العلم من دون عناء) قال السيد عبد القدوس (أخطأ غوته و لعله تعمد الخطأ ، من لا يفكر لا يغادر القطيع) قالت صفيحة (إذا فهو العقل) أجابها السيد عبد القدوس (بل الفطرة).

- بماذا أجابتة ؟

- لا شيء ، أخذت الورقة وأحضرتها لك .

كنت في حصة الرياضيات التي تبتدئ عند الساعة التاسعة صباحاً و تنتهي عند العاشرة حيث تبتدئ حصة الاجتماعيات عندما حضر طالب ضئيل الجسم و استاذن أستاذ الرياضيات قبل أن يخاطبني :

- يريد السيد الخاول أن يعرف إذا ما كنت أجزت البحث .

- أظنني فعلت .

في الساعة العاشرة و خمسة دقائق وجدت في المقاعد الخلفية للفصل الأستاذ الخاول برفقة خمسة أساتذة آخرين ، و عندما أخذ الطلبة مقاعدهم عمّ صمت مطبق ، قطعه الخاول بمقدمة يمكن تسميتها خطبة المنتصر قبل الانتصار ، أعرب فيها عن تشجيعه للاجتهاد ، و عن حبه للطالب الجريء ، و أنه لا يعتبر نفسه معصوماً و و انتهى ، و عاد الصمت .

فتحت محفظتي و أخرجت الورقة البتيمة ، سمعت همسات و ضحكات مكتومة، لم أشعر بالحرج وإنما شعرت بالغضب من تلك العيون التي تحدق بي ، أخذت كرسي الأستاذ من على مكتبه و وضعه في منتصف الصف و جلست أنظر إلى العيون الشاحصة .

- أسانذتي المحترمين ، زملائي و زميلاتي الأعزاء ، حصلت في الأيام الماضية على مجموعة من المراجع كان من بينها ، و سردت بعض العناوين ، وقد أنجزت بحثاً مستفيضاً كان من ضمن عنوانيه العريضة ، قدسية اللغة العربية و ارتباطها بالقرآن الكريم ، اللغة العربية أبرز اللغات السامية ، أقوال الغربيين في اللغة العربية ، مثانة بناء اللغة العربية ، إلى غير ذلك ، و لكنني قمت بتمزيق أوراق البحث في آخر لحظة

- و السبب وجيه كما ستعلمون .

فتحت الورقة ، عاد الصمت ، شرعت في القراءة بصوت مرتفع بطيء و باسترسلام مخافة أن أقاطع .

- السيد عبد المجيد الخاول قام بجمع بعض الأقوال السخيفة و الطعون التافهة في كتاب ليس له فيه إلا العنوان ، و هذا ما يجعلني أناقشه في عنوان الكتاب لا غير ، أمّا الترهات التي بين دفتي الكتاب فهي منقولات عن مجموعه من الدهماء الذين لا يشعرون بوجود الشيطان حتى و لو بات في خيالهم و تبؤل في أذهانهم ، و بما أني مقتنع بأن النقل عنهم سفاهة فإني أجد مناقشة ترهاتهم أقرب ، و أنا على يقين بأن معظم الطلبة الذين اشتروا هذا الكتاب مرغعين ، لم يقرؤوا منه حرفاً واحداً ، و أجد أن هذا هو التصرف الذي يليق بمثل هذا المؤلف ، و نقول لها المنتج الغث ، احسأ فلن تعدو قدرك .

أمّا عن العنوان فهو جهل و نفاق ، نافق لكون الأستاذ طعن في شيء و هدفه شيء آخر ، إمّا لأن الشجاعة الأدبية خانته و إمّا لأن سلاح المكر و النفاق أنجع في التأثير على هدفه المقصون ، هذا العنوان الجبان ظاهره الطعن في لغة و باطنه حرب على دين ، و لكي أكون صريحاً ، فأنا لا أعلم الأسباب التي قادتني إلى هذه النتيجة و لكنني أعلم علم اليقين أنها إصابة موقفة ، هذا عن النفاق أمّا الجهل ، فيتمثل في جهله بأنّ اللغة التي حسبها حلقة ضعيفة و خاصرة رخوة ، كانت قبل الدين و كانت قبل الإنسان و بها صار الإنسان إنساناً { و علم آدم الأسماء كلها } و كلها تعني جميع اللغات و من بينها العربية و هي توقيفية ، و لا فضل لنا و لا لأبنائنا الأولين في إنسانيتها و ابتدائهما و ابتداعها ، و إنّما هي إرث تركه لنا أبونا آدم فنحن نتوارثه ، مثلها مثل الأبوة و البنوة و الذكورة و الأنوثة و غيرها من ثوابت الإنسانية ، و لأنّه لا ينافق الجاهل في جهله إلا من هو أجهل منه ، فإني أعلن توقيفي عن هذا المهراء .

عقب أستاذان على كلامي في حين لزم الآخرون الصمت و من بينهم أدونييس ، لم أحفل بانتقاداتهما التي تراوحت ما بين الإشارة إلى جفاف أسلوبي و نعти بالعشوانية لأنّي خلّطت على حسب زعمهم بين الموضوعية العلمية و التعصب الديني .

تسبب لي هذا الحادث بالرسوب في السنة الأولى ثانوي ، و ذلك لأنّي حصلت على واحد من عشرين في مادة الاجتماعيات بالإضافة إلى حصولي على ثلاثة من عشرين في مادة اللغة الفرنسية و لكن قبل ذلك وقعت عدة أحداث كان تأثيرها علىّ أكبر من تأثير الرسوب .

الخطر لا يحيق إلا بالذين يتكلمون

بعد حادث أدونيس بأسبوع أخبرتني فاطمة بأن السيد عبد القدوس طلب منها إبلاغي عن رغبته في لقائي ، سرت بالخبر ولم أتفاجأ به .

في مدخل الزقاق المؤدي إلى بيت المرواني لفت انتباхи سيارة سوداء مركونة من نوع مرسيدس ، تصميم جديد و لوحة حكومية ، كان طول الجدار الخارجي لبيت المرواني يعادل طول ثلاثة جداران من البيوت المجاورة له ، كان مؤلف من طابق واحد به ثمانية نوافذ مختلفة الأحجام .

استقبلتنا صفية المرواني ، بدت أقل شحوباً من المرة السابقة ، لما توسطنا بهو المنزل وجدنا عادل و منير يهمن بالغادرة بعد أن أجهزا على إبريق من الشاي و شيء ما آخر كان في الصحن الذي بدأ فارغا ، فوجئ الاثنان لعدمي و سأل عادل صفية فأخبرته أن السيد عبد القدوس طلب لقائي ، اقترب مني و هو يضحك و قال :

– سيد النصر أو الخسارة تحت المجهر .

قلت :

– مَاذا ؟

لم يجبني و التفت إلى منير و قال :

– هل تظنه يصلح ؟

اقرب مني منير بدوره و كان شاباً أبيضاً طويلاً ذو شعر أسود و ناعم و عينان سوداوان خاليتان من أي بريق ، أمعن النظر في بشرود ثم قال :

– هل تعرف مَاذا قال ديدرو يا عادل .

– مَاذا قال ؟

– قال (إنَّ الْخَطَرَ لَا يَحِيقُ إِلَّا بِالَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ) .

– إذا كان الأمر كذلك فهو يصلح .

ردّ منير و هو يتوجه صوب الباب :

– أمّا أنا فأفضل الصمت .

قال عادل و هو يتبعه :

– و أنا أيضاً و لذاك فنحن لا نصلح يا صديقي .

وخرجا و هما يقهقحان بصوت عال .

أخبرتنا صفية أن السيد عبد القدس يستضيف صديقا له ، و انه سيفرغ بعد قليل ، و قامت بحق الضيافة شاي و مكسرات ، ظلت الفتاتان توشنان طيلة عشرة دقائق و لما انتهينا لشعورى بالحرج سكتنا ، و استأذنت فاطمة في الانصراف متذرة بالأشغال المنزلية التي تنتظرها ، قالت صفية بعد خروج فاطمة :

– إذا فأنت هو شعيب وريث آدم .

– ما معنى ما قاله منير قبل قليل ؟

– لماذا قال ؟

– أن الخطر لا يحique إلا بالذين يتكلمون .

– انه قول من رواية لدیدرو عنوانها جاك المؤمن بالقدر .

أعجبني العنوان فكررته :

– جاك المؤمن بالقدر .

– هذا العنوان أما الحقيقة فجاك يطعن في القدر .

– هل يمكن أن أعرف سبب دعوة السيد المرواني لي .

– لا أعرف و لكن بالتخمين أظنك الخيار الوحيد المتاح له .

– لم أفهم ؟

– ستفهم فيما بعد .

– متى ؟

– لا أعلم ، الأمر عائد لك ، و لا أنصحك بالفهم .

– هل هذا لغز ؟

– بل تحذير مباشر و صريح ، و أنا علي يقين أنك لن تأخذ به .

– لماذا ؟

– لديك ملكرة البحث عن المعرفة .

– كيف عرفت ؟

فتح باب صغير ملاصق للمطبخ و خرج منه السيد عبد القدوس و كأنه رجل من سكان البلقان ، شعر أشقر و لحية حمراء كثة ، و شارب يحجب كامل شفته العليا ، و عيون زرقاء ناعمة ، و سنته التي لم تفارقه منذ أن عرفته و هي الإرهاق الدائم البادي عليه . وعلى إثره خرج السيد عمر بوفلاح و هو رئيس المجلس البلدي لمنطقة سباتة ، و هو من سيكشف لي فيما بعد بعض الجوانب المظلمة لعائلة المرוואني .

بعد أن شبع السيد عبد القدوس ضيفه دخل مباشرة إلى المرحاض و منه إلى الغرفة المجاورة للمطبخ ، ثم و كأنه انتبه أخيراً لوجودنا ، قال من داخل الغرفة :

– اتبعوني يا شعيب .

قبل أن أمتثل للأمر نظرت إلى صفيحة فوجدت بها مرکزة بصرها على باهتمام متفرسة في ملامحي . كانت تلكم الغرفة فارغة إلا من حصير ، تحوي بابين ، الباب الذي دخلت منه ، و آخر مقابل له فتحه السيد عبد القدوس و غاب خلفه من غير أن ينزع المفتاح من القفل ، كانت مساحة الغرفة الثانية حوالي ثمانية أمتار مربعة ، تحوي عدداً كبيراً من الكتب وضعت مباشرة فوق الحصير ، دون أي رفوف ، وقد وضع بعضها فوق بعض ، و كان يصل علو بعض الصحف إلى مترين و نصف .

قبل أن أنتهي من استكشاف الغرفة انتبهت إلى السيد عبد القدوس ينظر إليّ و هو جالس في الزاوية البعيدة للغرفة على كرسي انتزع من سيارة ما ، موضوع فوق صندوق خشبي . أشار لي إلى كرسي من البلاستيك أمامه كالذي يستعمله أصحاب المقاهي التي بالأسواق الأسبوعية . و من دون أي مقدمات و كأننا في مقابلة توظيف .

– هل تعلم سبب رغبتي في لقائك ؟

– ربما الأسطر التي صفت بها الأستاذ الخاول .

– أظنها كانت رمية من غير رام ، و لكنها ليست السبب .

– و ما السبب ؟

– السبب هو أنني أريد أن أحاول مرة أخرى .

– كلامكم يا سيد عبد القدوس كلهم مشفر .

– هذا لأننا نحاول قول ما لا يجب أن يقال .

– و ما الذي يمنعكم من القول ؟

– مانعان ، أحدهما هو وجود من لا يريدنا أن نقول و الثاني و هو آفة العصور ، أنه لا يوجد من يصدق ما نقول .

– العصور !

– العصور الممتدة من آدم إلى هذه اللحظة التي نعيشها الآن .

- أعتذر منك سيد عبد القدس ، و لا أحب أن أخيب آمالك ، و لكن يجب أن أنبهك إلى أنني غير مؤهل لأنكلم بالألغاز مثل أفراد أسرتكم الكريمة ، فأنا شخص قروي بالكاد قرأ بعض الكتب التي كانت تقع في يده من هنا أو من هناك ، و لأنني أحترمك فإنه يلزمني أن أكون معك صريحا و أخبرك أنه منذ دخولي منزلكم و أناأشعر بالضيق من فصول هذه المسرحية المبالغ فيها . يا سيد عبد القدسمنذ أن كنت قادرا على صياغة الكلام و أنا أترجم أفكاري و مشاعري إلى كلام يعبر عن أفكري و مشاعري بعفوية و ببساطة و هكذا أحب أن يكلمني الناس .

لم يقاطعني و انتظر إلى أن أنهيت كلامي ثم قال :

- أن تعبر عن مشاعرك و أفكارك بالكلمات المناسبة ملحة نادرة ، و لا تنتظر من الذي لا يملها أن يعاملك بالمثل ، ففائد الشيء لا يعطيه ، أعرف أنك قشة و أن تمسك بقشة أفضل من أن تمسك بلا شيء .

شعرت بندم مفاجئ على قبولي للدعوة ، و وقفت استعدادا للمغادرة ، و هذا في نظري كاف لأبدى استيائي من هذه المقابلة السيئة ، قلت :

- صحيح فالقشة وإن كانت قشة فهي شيء ، و لكنني أرفض أن تتمسک بي ، دمت بخير سيد عبد القدس.

لم يلح علي بالبقاء و بدأ هو الآخر راغبا في انصرافي ، قال وهو يمسك صدعيه بأصابع يده اليمنى، الإبهام في جهة و باقي الأصابع في الجهة الأخرى ، و كانه أحسن بصداع مباغت .

- كانت مقدمة لا بأس بها ، شرفت بلقائك يابني و أرج منك تكرار الزيارة في أقرب وقت .

نظر إلي و ابتسم ثم تابع :

- يمكنك استعارة بعض الكتب إذا أردت ذلك .

أفرحني عرضه و تبخر انزعاجي من الزيارة ، قلت :

- هل يمكنك استعارة الكتاب الذي اقتبست منه مقوله الدهماء لا يشعرون بالشيطان حتى ولو أمسك بمخلقهم .
فاؤست .

- و ماذا تعني فاؤست ؟

- مسرحية فاؤست ، إنها على ما أظن هناك ، يمكنك أخذها .

- و هل يمكنك أخذ هذا الكتاب الذي يليها ؟

- موبى ديك ، أجل .

خرجت من عنده مسرورا بالكتابين ، وجدت صافية تقف على باب المطبخ ، تعجبت من قصر مدة الزيارة ، وقالت بعد أن اطلعت على عنواني الكتابين :

– ها قد بدأنا من جديد ، كان الكيخوطى أعقل من أبي بكثير ، فقد صارع الطواحين الهوائية مرة واحدة ، أما أبي فلا يزال يصارعها مرارا .

فرحتي بالكتابين جعلتني أتفادى التعقيب على قولها أو الاستفسار عن مقصدها ، ما دامت الزيارة لم تخل من فائدة ، و هي الآن بين يدي فليتكلم آل مروانى بالألغاز كما شاءوا .

هل انتهت رحلتك مع يوهان

بعد ذلك وقعت في كولومبيا بعض الأحداث المتتالية و المتتسارعة ، فقد قام أفراد من عائلة البركي بامتهان تجارة الحشيش في الجهة الشرقية من الحي ، و عائلة البركي هذه تتحرر من منطقة زاكورة ، و جل سكان الجهة الشرقية لحي كولومبيا ينحدرون من تلك المنطقة .

كان سفيان البركي أول من بدأ بالتمرد على سيطرة القلطط على تجارة الحشيش في الحي لحوالي ثمانية أعوام ، كان في السابعة والعشرين من عمره ، و كان محاطا بأفراد من عائلته من بينهم عم مصطفى البركي و هو في نفس عمره تقريبا ، و ابني أخيه المحجوب و إبراهيم و كننيتهم أيضا البركي و إبراهيم هذا هو من وجه الطعنة القاتلة التي أودت بحياة عادل ، كما سندكره في ما بعد .

و قعت مناوشات بين الطرفين كان الخاسر فيها دوما هم آل بركي ، في إحدى الجولات كان سفيان يتاجر مع أحد زبائنه قبيل المغرب حين سمع المحجوب يصيح فيه .

- احذر ، احذر .

و قبل أن ينتبه كان منير قد بتر أذنه اليمنى بضررية سكين مبالغة من الخلف ، و لما هم بإخراج سكين من حزام بنطاله ليدافع عن نفسه ، وجد نفسه مطروحا أرضا بسبب لكمه جنوبيه من أحد المرواني ، حاول آل بركي الدفاع عن سفيان فاعتراض طريقهم مجموعة من الشباب المرافقين لآل مرواني و كان من بينهم مبارك ابن عمتي ، اختلط الحابل بالحابل و لم يعد يرى لنابل أثر ، و تعالت صيحات النساء في كامل الجهة الشرقية للحي ، أما باقي مناطق الحي فكانت تصدر الناس إلى الجهة الشرقية حفاة و حاسرين ، و الكل يجري و يولول ، شهد عادل اللحظات الأخيرة لل العراق ، و كان جده منصبا على تخليص سفيان البركي من قبضة أحد و منير اللذان ما ترکا في جسمه مكانا إلا و أدموه ، شرع بعض الرجال يصيرون الشرطة قادمة ، الشرطة داخل الحي ، فر كل المتقاتلين في اتجاهات مختلفة ، و ظل سفيان البركي ملقى في ساحة التفاصيل هو و شاب آخر من المرافقين لآل مرواني ، تلقى طعنة من مصطفى البركي نقل على إثرها إلى المستشفى ما بين الحياة و الموت .

خرجت عمتي لما سمعت الصياح حافية ، و كنت على إثرها بعد أن انتعلت حذائي ، شهدت اللحظات الأخيرة من العراق ، حضرت الشرطة بعد نصف ساعة من انتهاء التفاصيل ، و الصيحات التي أخبرت بقدومها من قبل كانت حيلة مكشوفة و فعالة لفظ الشجار .

أسندت ظهري إلى حائط بعيد عن تجمعات الناس و أخذت أردد بصوت مهموس .

- في شجار مثل هذا لا يوجد نصر ، و إنما خسارة و خسارة ، يبد أن آل مرواني لا يقولون الغازا .

في تلك الليلة ثم القبض على مبارك ابن عمتي و المحجوب البركي و قد حكما بعد ذلك بستة أشهر سجنا نافذة ، في حين ظل الباقيون ملاحقون أمنيا ، و في تلك الليلة أيضا أدركت أني لم أرى إلا نموذجا

صغرًا لمظاهر سلطان غريبة القطيع ، و تكونت عندي بعض الانطباعات الخاطئة عن علاقة الكلمة بالسيف توازياً و تقابلاً ، و سنرجع لهذا بالتفصيل في المحطة الرابعة من رحلتي .

تكلف عادل المرwoاني بمصاريف علاج الفتى الذي نلقى الطعنة و باتعاب المحامي الذي دافع عن مبارك أمام المحكمة ، و كان خروج حمزة المرwoاني من السجن نهاية تمrd آل بركي و ذلك إلى حين .

الشبه بين حمزة و أحمد كان كبيراً ، غير أن حمزة كان أجسم منه ، و كان مدمn خمر كثير الشجارات ، معظم ضحاياه بعد انتهاء مشكلة آل بركي شباب من خارج الحي قدموا لاقتناء الحشيش ، و رغم تسلطه و تجبره فقد كان حمزة مصاباً برهاب الوحدة . و لا يستطيع البقاء بمفرده و خصوصاً في الليل ، و حكى لي مبارك أنه كان إذا أراد دخول المرحاض يطلب من أصدقائه الحديث بصوت مرتفع ، و قد علمت فيما بعد أن سبب رهابه يعود إلى أنه شاهد أمه السيدة خديجة أمزار و هي ترتفع في الهواء من تلقاء نفسها ثم فصل رأسها عن باقي جسدها .

قصدت منزل آل مرwoاني بعد ثلاثة أيام من موقعة الجهة الشرقية كما أحب أن أسميها ، و كان قد مضى تسعه أيام على زيارتي الأولى لسيد عبد القدوس ، كنت قد انتهيت من قراءة مسرحية فاوست في اليوم الأول ، أما موبى ديك فكانت مرهقة و لم أستطع إتمامها إلا بعد ثلاثة أيام .

فتحت لي فاطمة الباب ، و كانت تساعد صفيحة في الأعمال المنزلية ، فبسبب مرض صفيحة لم تكن قادرة على القيام بأشغال البيت بمفردها ، لم يكن بالبيت إلا الفتان و السيد عبد القدوس ، فقد صدرت في حق عادل و منير و أحمد مذكرة بحث ، و هذا ما جعلهم ، لا يرجعون على البيت إلا نادراً و في أوقات غير محددة و لمدة قصيرة .

في ذلك اليوم بدت صفيحة شاحبة كما رأيتها أول مرة ، و رغم أنني أعلم أنها في الثانية والعشرين من عمرها إلا أنني كنت أنظر إليها على أنها في الأربعين أو أكثر ، لم يكن هناك ما يدل على أنها حية إلا لون شفتيها الوردي و بريق عينيها .

صفيحة بئر الأحزان ، لم تحاول فتح فمها لتشكو ، فقد كانت تعلم أن الشكوى تعني كشف الأسرار ، لم تعاتب أباها يوماً كما فعل إخوتها مراراً ، كيف تعاتبه على إرث ، توارثه أسرته لآلاف السنين و رفض هو توريثه لأبنائه ، أليس هو صاحب الإرث ، إذا فليفعل به ما يشاء . لم تحمله يوماً المسؤولية عن موت والدتها ، رغم أنها كانت حينذاك في العاشرة من عمرها فقط إلا أنها كانت تعلم أنّ والدتها كانت تتضرر الموت و مستعدة له . صحيح أنها كانت أصغر آل مرwoاني سنًا إلا أنها كانت أكثرهم اتزاناً في مسألة إلقاء اللوم على السيد عبد القدوس ، فقد كانت تفخر بشجاعته في اتخاذ قرار الانشقاق عن الشجرة الملعونة ، و مع ذلك فقد كانت تحس في قرار نفسها بأنه لو أجاد التصرف لاستطاع المحافظة على أسرته . لما رأته ابتسمت و قالت :

— هل انتهت رحلتك مع يوهان؟

— ومن يكون يوهان هذا؟

— الدكتور يوهان فاوست .

— اسمه يوهان!

– هذا ما قالوه .

– أليست أسطورة؟

– إنه شخصية حقيقة وجدت وعاشت و لا أحد ينكر ذلك .

– لا ليس شخصه وإنما سيرته هي الأسطورة .

– لقد علم غوته أنك ستقول ذلك ، ولهذا كتب لك (الدهماء لا يشعرون بالشيطان حتى ولو أمسك بمخنقوهم) .

– غوته قال الكثير .

– و سكت عن الكثير .

– كيف عرفت؟

– هكذا هو الأدب .

– وماذا عن موبى ديك؟

– لقد كان إسماعيل هو الناجي الوحيد ولهذا رمزية تبين عبقرية ملف.

– لم أستخلص ذلك ربما على قراءة الرواية مرة أخرى .

– لا أنسحوك بأن تقرأ رواية مرتين .

– لماذا؟

– سوف تكررها .

– الأسلوب الذي كتبت به فاوست يجعلني أعيد قراءتها دون أن يتغير انطباعي الأول عن المسرحية .

– ومع ذلك فقد استطاع ملف قول ما لم يستطع غوته قوله ، اذرنني يا شعيب فقد أتعبني الوقوف ، يمكنك إتمام الحديث مع أبي في حين تعد لكما فاطمة الشاي ، اطرق الباب قبل الدخول .

ووجدت السيد عبد القدوس كما تركته في المرة السابقة ، بدأ و كانه لم يتحرك طيلة الفترة الفاصلة بين الزيارتين ، لـما رأني وأشار لي إلى الكرسي البلاستيكي ، أعدت الكتابين إلى المكان الذي أخذتهما منه و جلست أنظر إليه ، لم يكن يقرأ أو يكتب أو يأكل أو يشاهد التلفاز أو يستمع للمذيع أو أي شيء ، كان جالسا لا غير ، و هكذا كان دائما يجلس لساعات طوال دون أن يأتي بأي حركة . لـما أبطأ في المبادرة بالكلام قلت :

– أظن أن صفيحة معجبة بمحظى موبى ديك .

- صحيح فملف حاول أن يكون صادقا .

قلت في نفسي ها قد بدأت الطلاسم .

- و ما الذي يمنعه من أن يكون صادقا ؟

- لأن فن الرواية أسس على الكذب .

- هل هذا يخص ملف وحده ؟

- أعتقد أن تولستوي جعله خاصا بملف .

- وما الذي دفع تولستوي إلى هذه النتيجة .

- لأن تولستوي حاول هو أيضا أن يكون صادقا .

- لا أعرف إلى ماذا ترمي ، وأظن أن سبب موقفكم من موبى ديك يعود إلى كونها حوت معلومات حقيقة عن تاريخ صيد الحوت و أنواعه و أماكن تواجده ، و كل تلك التفاصيل الدقيقة .

- بل يرجع إلى الإشارة لثورة ذلك المخلوق الضعيف المتكبر الحقد المتمثل في شخص آخاب على قدرة الخالق الواحد المتمثلة في شخص الحوت الأبيض، و تلك التفاصيل التي تكشف الكثير .

- لم أنتبه لذاك .

- يابني لم اعد أهتم لأمر الكتب منذ زمن بعيد ، وخاصة الروايات، فدعنا منها وأخبرني عن مسعاك.

- لعك تقصد أهدافي .

- احذر يا شعيب أن تسلب إرث آدم و تفقد القدرة على تسمية المسميات بأسمائها الصحيحة .

- إذا كنت تقصد بالمعنى الوجهة و الغاية فإني في الوقت الحاضر لا أسعى لأي شيء .

- لا شيء تعني العدم ، و أنت موجود وتسعى إلى غاية محددة .

- لم أفهم ؟

- أنت موجود و قد ابتدأ وجودك في نقطة محددة و سينتهي عند نقطة أخرى ، و ليس أنت من اختار نقطتي البداية و النهاية الخاصتين بك ، و لكن في سيرك ما بين هذين نقطتين تكون لك مشيئة مستقلة بمفرد وصولك سن التكليف .

- هل تقصد بالمعنى نقطة النهاية؟

- نقطة النهاية حددت مسبقاً و لن تستطيع تغييرها وإنما أقصد الوسائل التي تتخذها للوصول لتلك النقطة.

- أستطيع أن أستنتاج من كلامك يا سيد عبد القدوس أن المعنى يكون بين النقطتين ، و أنّ لنا إرادة حرة في هذا المعنى .

- لا أستطيع يا بنى أن أؤكد لك إذا ما كانت لنا إرادة كاملة أم لا .

- أظن أنها معضلة يصعب حلها .

- بل هي عجز عقلي و قصور معرفي يجب علينا الاعتراف به .

دخلت فاطمة تحمل مائدة صغيرة وضعتها أمام السيد عبد القدوس ثم خرجت لترجع حاملة الشاي و الفطائر ، وضعتهم على المائدة و قالت :

- لقد حضر السيد خليفة أمزار و هو يتحدث الآن مع صفيه .

شرع السيد عبد القدوس في تقديم الشاي و لم يعر قول فاطمة أي اهتمام ، قال بعدها وضع أمامي كأس شاي و عزم علي في الأكل من الفطائر :

- يا شعيب عليك في المرحلة الراهنة أن تعرف مسعاك ...

هممت بالكلام فأشار إليّ بيده أن أسمع فسكت ، و واصل :

- و لكي تعرف تلزمك المعرفة ، و المعرفة لا تتتوفر إلا من مصادر و لكي تحصل على مصدر ، يتحتم عليك السعي إليه ، و هذا هو مسعاك في الوقت الراهن ، و قد بدأت سعيك بالفعل و لهذا أنت هنا ، أعرف أن لك من الملكات ما يؤهلك لاختصار العديد من المراحل ، لا تسألني كيف عرفت ، و لكنها الحقيقة أؤكد لك ذلك .

وضع يده على فمه و كتم التثاؤب ، ثم قال :

- قد أكون مصدراً هاماً يسعى إليه العديد من الأشخاص في العالم كله أشراراً و أخيراً ، ولكن بالنسبة لك لا أصلح أن أكون مصدراً في الوقت الراهن ، لأن الحكم لا تجيز إطعام المولود حديثاً لحماً و يمكنك أن تبدأ من نفسك كمصدر أول ، فيكون سعيك إلى نفسك خطوة أولى و سعيك بنفسك خطوة ثانية و سعيك لنفسك خطوة ثالثة . سعيك إلى نفسك يتتيح لك معرفة من هو شعيب مودود ، و سعيك بنفسك يكشف لك ماذا يريد شعيب مودود ، أما سعيك لنفسك فهي المعرفة التي تبحث عنها . و هي في حد ذاتها وسيلة و ليست غاية .

تناءبت بدوري ، فسكت إلى أن انتهيت من كتمها ثم واصل .

- الخطوات الثلاثة هذه تعتبر مصدراً واحداً من مصادر المعرفة العديدة ، و أعرف أن توجيهي هذا تطفل عليك ، و السنين ستثبت لك ، أنك لا تصلح أن تكون في الصنوف الخلفية و حينها ستشكر تطفلي .

لمست في كلامه مبالغة واضحة و تعالماً سافراً ، و هذا ما دفعني إلى سؤاله عن عمله السابق . صمت طويلاً حتى ظننت أنه لن يجيب ثم أشار إلى بضعة كتب كانت بالقرب مني بحوالي المتر ، أحضرتها و وضعتها فوق ركتي و شرعت أمررها الواحد تلو الآخر .

(الفلسفه العرب ما بين حمل النقل على العقل و حمل العقل على النقل ابن رشد نموذجاً تأليف الدكتور عبد القدوس المرواني) ، (كارل ماركس و سجموند فرويد و تقاسم إرث مزدك مناصفة تأليف الدكتور عبد القدوس المرواني) ، (فولتير بساطة التفكير و فخامة التعبير بقلم الدكتور عبد القدوس المرواني) ، (كولن ولسون عندما تختلط الفلسفه بالأدب و الأدب بالخرافة تأليف الدكتور عبد القدوس المرواني أستاذ الفلسفه بجامعة محمد الخامس) .

راجت في ذهني مجموعة من التساؤلات المحريرة ، و استطعت كبح فضولي ، قلت :

- هل أستطيع استعاراتها ؟

- لا يمكنك .

أعددتها إلى مكانها و لم أعرف حينذاك السبب الذي جعل السيد عبد القدوس يرفض إعاراتها لي ، و قد تبين لي السبب فيما بعد ، دخل خليفة أمزار خال صفية ، كان يرتدي جلباماً تقليدياً أحمراً ، كان في مثل عمر السيد عبد القدوس تقريباً ، قصير القامة و بدین يملأ وجهها بشوشًا يحرص على حلقه دائماً ، مع أنف أفطس و نظارات طبية . كان نائباً سابقاً عن حزب التضامن الاشتراكي و ظل يشغل منصب رئيس معهد الطبيعة للدراسات الجيوسياسية للدول شمال إفريقيا إلى حين وفاته ، و ابنه هشام أمزار كان رفيق دربي في المحطة الثالثة من رحلتي ، و كان يبكي كلما تذكر وصيّة والده ، و قد أسرّ لي في أحد المرات أنّ والده قتل ، و لم يتمت كما يظن الناس .

صافحتي بوجه بشوش و ابتسامة عريضة و مدّ يده إلى السيد عبد القدوس و هو يقول :

- يا صديقي العزيز هناك لجنة خاصة في لندن تدرس ملفك الآن ، و كلما تحركت أكثر كلما سحبتك الرمال المتحركة أكثر .

نظر إلى السيد عبد القدوس و قال :

- يمكنك استعارة الكتب التي ترغب في قراءتها .

أغنى تلميجه عن التصريح ، فأخذت كتابي *الخلاء للجاحظ* و *سيد الخاطر لابن الجوزي* ، ثم عرجت على المكان الذي أعدت إليه فاوست و موبوي ديك وأخذت روایتي *الخيائي* و *الغریب* ثم غادرت .

انصرف الشهد

في مساء ذلك اليوم زارنا عبد الكبير مودود أصغر أعمامي ، ظننتها في بادئ الأمر زيارة عادية ، و عندما جلسنا على مائدة العشاء أخبرتني عمتي بضرورة استعدادي للسفر ، لأن هناك مشكلة عائلية تستلزم حضوري ، و لما استفسرت عمي عن الأمر أوضح لي أن المسألة لا تستدعي الفلق ، و قد أخبرني بعد أسبوع من ذلك أنه لم يخبرني عن تلكم المعضلة عندما كان بالبيضاء مخافة أن لا آتي معه إلى القرية و هذا ما أكدته له .

كانت عمتي نعيمة امرأة عاقلة جلدة تقوم بدورها في تدبیر شؤون المنزل كربة بيت بالإضافة إلى قيامها بإعالة الأسرة ، و ذلك منذ أن أصبح زوجها السيد ميلود عاجزا عن العمل بسبب تعرضه لحادث قبل سنتين . كانت توجه كل يوم اثنين إلى سوق القرى و تشتري بالجملة ملابس نسائية متنوعة ، أما باقي أيام الأسبوع فإنها تقوم في النصف الأول من النهار بالطوفاف على بيوتات حي كولومبيا و الأحياء المجاورة له حاملة بضاعتها ، و تظل ملازمة للبيت بقية اليوم و غالبا ما تزورها بعض زبوناتها إما بقصد الشراء أو الأداء أو التوصية على بضاعة بعينها ، أو لأسباب أخرى . قالت لي و أنا أودعها صبيحة ذلك اليوم :

– القرار يعود لك ، و أن لا تتوافق أباك اليوم خير من أن تلومه غدا .

وصلنا إلى القرية وقت الطهيره ، و كان كل شيء يبد طبيعيا باستثناء تلك الوشوشة التي صدرت من النسوة اللاتي مررنا بهن في وسط القرية ، لم نجد في منزلنا سوى جدتي من أمي السيدة حفيظة العيادي التي لم يكن أحد منا يعرف عمرها بالتحديد و كل ما يُذكر عنها هو أنها كانت يافعة عندما عاد الملك الراحل محمد الخامس من منفاه . بصعوبة كبيرة استطعنا أن نستبين منها أن الجميع في بيت أكبر وأعمامي السيد العربي .

اجتمع معظم أفراد عائلة مودود في بيت عمي العربي ، و بمجرد دخولنا قال مروان ابن خالتي سمية و صديق طفولتي :

– ها قد وصل العريس .

ضربته أمه بين كتفيه و انتهت بشدة ، قبل تلك اللحظة كان تفكيري يسافر جيئه و ذهابا بين عبد القدس المرواني و ماذا يمكن أن يكون ذلك المشكل العائلي ، و لكنّ كلام مروان حذف السيد عبد القدس من تفكيري تماما ، فصاحت جميع أفراد العائلة تباعا حتى الأطفال الصغار . ثم أخذت مكاني في المجلس و توجهت بكلامي مباشرة إلى والدي محمد مودود :

– ما الذي يحصل ؟

لم يجب ونظر صوب أخيه العربي ، كان عمي العربي أغنى أفراد آل مودود ، فقد امتهن التجارة و لم يكتفي بالفلاحة كما فعل أبي و باقي أعمامي ، كان يملك شاحنتين من نوع ميتسو بيتشي يعمل عليهما ابنيه عبد الغني و عماد و هو أصغر أبنائه ، يكبرني بسنة ، أمر عمي النساء أن يغادرن المجلس ففعلن

إلا أمري ظلت جالسة في مكانها ، أصرّ عمى على أن تخرج ، وفور خروجها شرع في إيضاح سبب استدعيائي ، وشرح لي المأزق الذي تمر به عائلة مودود عامة وأسرتي خاصة . فقد حدث قبل شهر أن دخلت أمري في تلاسن مع حفيظة ابنة منصور أشقيير ذات الستة والعشرين سنة ، بسبب رمي النفايات في أرض تملكها عائلة أشقيير ، فتطور الأمر إلى شتائم وتبادل للقذف ثم اشتباك بالأيدي ، ثم وقعت المصيبة . فقد قامت اختي الكبرى لطيفة برمي حفيظة بحجر فقا عينها اليسرى ، وقبل أن يصل رجال الدرك قام زوج اختي عبد الغني مريوش بتهريب زوجته إلى مدينة الجديدة وبالتحديد عند اخته المتزوجة هناك ، ونظرا للعداوة القديمة بين عائلة مودود وعائلة أشقيير فقد حضر إخوة حفيظة من الدار البيضاء ، بالإضافة إلى بعض أبناء عمومتها ، وقادت تقع شجارات دامية بين أفراد العائلتين لولا تدخل إمام المسجد وبعض أعيان القرية الذين استطاعوا الجمع بين العربي مودود و محمد أشقيير وهو حال حفيظة و ابن عم والدها ، و كان موظفا بالمجلس القروي و يحظى باحترام الجميع .

هدأت النفوس و ذلك بعد أن توصلوا إلى ثلاثة حلول يتم اختيار أي واحد منها تتفق عليه العائلتان ، الحل الأول أن يترك الأمر للقضاء و يتوقف آل أشقيير عن التحرش بآل مودود ، و الاقتراح الثاني تعويض مالي تدفعه عائلة مودود لمنصور أشقيير والد حفيظة يتم بموجبه تنازل حفيظة عن حقها في متابعة لطيفة قضائيا ، أما الاقتراح الثالث فهو تزويج حفيظة من أحد شبان عائلة مودود و في المقابل تنازل عن حقها في المتابعة القضائية .

كان هذا ما اتفق عليه الرجال ، أما الاختيار فقد سيطرت فيه النساء ، ففي الوقت الذي كانت نساء آل أشقيير يقلن إن لم يكن الحل الثالث فالأول ، كانت نساء آل مودود يقلن إن لم يكن الحل الثاني فالأول ، أما عقلا العائلتين فكانوا يفضلون الصلح و يرفضون الحل الأول .

وأخيرا انتصرت نساء آل أشقيير اللواتي كن يطمعن أن يكون العريس هو عبد الغني ابن عمي العربي ، لكنه تعذر بحجة وعده لفتاة أخرى بالزواج و يستحيل أن يخلف وعده كما قال ، و كذلك اعتذر كل عزاب آل مودود . وقد استطاعت النسوة إقناع عزيز ابن خالتي فتحية ولكن أمّه رفضت بشراسة واستطاعت أن تنتهي عن عزمه و هذا ما كان سببا في قطيعة بينها وبين أمري دامت إلى أن أصلحت بينهما في المحطة الثانية من رحلتي .

و لما طال الأمر على آل أشقيير و ظهر التلاؤ من آل مودود ، عمد محمد أشقيير إلى الاستعانة بمعارفه فتمكنـت الشرطة من اعتقال لطيفة بمدينة الجديدة ، و كان ذلك قبل يومين ، و نظرا لكونها أم لطفلين يحتاجان رعايتها فكان و لا بد من إحضار أخيها البكر أي أنا و تقدمه لخطبة حفيظة ، حتى إذا ما رفضت أسرة أشقيير ، فإنه سيسهل إقناعهم بال الخيار الثاني . و هكذا علمت تفاصيل الواقع و بقي عليّ إبداء رأيي في هل أقبل بأن أكون كبش فداء أم لا .

قال عمي العربي بعد أن انتهى من سرده :

– أعرف أنك ترغب في مواصلة دراستك ، و لكنك الولد الوحيد لأسرتك و يجب أن تقف معها في محنتها .

لم أجده و نظرت إلى أبي لأجده مطرقا رأسه ، و هكذا يكون دائما في المجالس التي تجمعه و أخيه العربي .

قال عمي عبد الكبير :

- نحن لا نلزمك و القرار يخصك وحدك ، و حفيظة أكبر منك بخمس سنوات ، و كما تعلم فإن طباعها حادة و سريعة الغضب و لذاك لم يجرأ أحد على التقدم لخطبتها على الرغم من أنها ليست قبيحة ، ثم إنها صارت الآن بعين واحدة .

و ما إن قال عبارته الأخيرة حتى انفجر مروان بالضحك فتبعه الجميع باستثناء والدي و عمي العربي ، اعتبرت ذلك المشكل حاجزا بسيطاً أستطيع تجاوزه بسهولة ، لذاك صرفت تفكيري عنه و رحت أحاول استرجاع كلمات السيد عبد القدس محاولاً تخيل الأسباب التي جعلت أستاذًا جامعيًا و مؤلفاً للعديد من الكتب يعيش تلك العزلة المقيمة ، و كيف يعقل أن يصير أبناءه تجار مخدرات .

دخلت النسوة لما سمعن الضحك و أخذن مجالسهن ، قال عمي العربي :

- نريد أن نسمع رأيك يا شعيب فالأمر جاد و يحتاج إلى حزم و ليس كما يظن هؤلاء السفهاء .
و أشار إلى الجهة التي جلس فيها مروان و ابنه عماد ، اعتدلت في جلستي و نظرت صوب أمي و قلت :

- لقد خضت شجara خلف خسارة و خسارة ، خسرت حفيظة عينها و خسرت لطيفة حريتها ، و لا ندري هل ستتوقف الخسائر عند هذا الحد أم أنها ستزيد ، و غالباً إن شاء الله ستتجه إلى منزل السيد منصور أشقر لستخرج منحة من طيات هذه المحنة ، و إذا كانت مثل هذه الشجارات لا تخلف إلا خسارة و خسارة فستكون مناسبة جيدة لاختبار قوة الإرادة و قدرتها على تحويل الخسائر إلى أرباح .

بد الجميع مستغربين من كلامي ينظر بعضهم إلى بعض و لسان حالهم يتهمني بالخبـل .

قال عمي عبد الكبير :

- الدراسة في الدار البيضاء جعلت من ابن أخي فيلسوفاً .

قال عماد :

- أظنه يخطط للهرب .

عـجـ المـجلسـ بالـضـحـكـ ،ـ قـلـتـ :

- و لماذا أهرب ؟

قال مـروـانـ :

- خوفـاـ منـ الأـعـورـ الدـجالـ .

تعـالـتـ الـقـهـقـهـاتـ وـ تـنـاوـلـتـ خـالـتـيـ سـمـيـةـ نـعـلاـ وـ رـمـتـهـ بـهـاـ فـخـرـجـ هـارـبـاـ وـ هـوـ يـضـحـكـ .

قرأت ليلة ذالك اليوم رواية الخميائي في جلسة واحدة، ولم استيقظ إلا عند الساعة العاشرة صباحاً ، أعلمتي أمي أنه تقررت زيارتنا لأسرة منصور وقت ما بعد العصر ، وأعطيتني خمسمائة درهم و طلبت مني أنأشتري من البلدة القرية بذلة تجعلني أبد أصغر من سني ، وقد فعلت عكس ذالك . استحممت بعد الغداء ، وقرأت بعض الفصول من كتاب صيد الخاطر ، وقبيل الموعد غيرت ملابسي و حاولت أن أكون على الأكثر مقبولاً . استقبلنا آل أشقر بحفاوة ، باستثناء جماعة أشقر والدة حفيظة فقد كانت متجهمة ، كان بيت السيد منصور متواضعاً حاله كحال معظم بيوت قريتنا ، جلسنا في بهو ثم إعداده من قبل و تعطيره ، كنا خمسة ضيوف أنا و والدي بالإضافة إلى عمي العربي و خالتى سمية التي أصرت على المجيء معنا ، بعد حوالي خمسة دقائق من قدومنا التحق بنا محمد أشقر و زوجته السيدة سميرة أيت راوي و كانت تعمل معلمة في قرية مجاورة .

أقسم منصور على عدم فتح أي موضوع ما لم يتم تقديم الشاي و قد أشرف على تقديمها بنفسه ، و بعد أن انتهينا من شرب الشاي قال عمي :

– لطيفة ابنتنا و حفيظة ابنتنا و ما وقع إنما بفعل وسوسه الشيطان .

قاطعته جماعة :

– لا يوجد أي شيطان ، الإنسان هو الشيطان .

نهرها أخوها و زوجها معاً ، وتنكرت السيد عبد القدس وغوطه ، (الدهماء لا يشعرون بالشيطان حتى ولو أمسك بمخنفهم) ، استائف عمي الحديث و قد بدأ مساء ، بسبب مقاطعة جماعة له .

– ما وقع قد وقع ولا يمكننا إرجاع ما فات و نحن هنا من أجل الصلح لا التعائب .

قال منصور أشقر :

– أنت في منزلك ، و حفيظة ابنتكم .

قال محمد أشقر .

– يا سيد العربي أي ثوب صلح تخيطونه فإننا سنلبسه دون اعتراض .

انتهزت أمي و خالتى الفرصة و حاولتا زخرفة حل التعويض المالي ، و لكن كيدهن جوبه بكيد جماعة و السيدة سميرة اللتان أوضحتا أنه إذا قضت لطيفة عقوبتها سجناً فإن ذالك سيكون كاف لشفاء الصدور ، وامتصاص الاحتقان الذي بين العائلتين و أن من ضربته يده لا يبكي ، و همت النسوة الأربع في المضي باللجاج ، ولكنّ عمي أوقفهن وقال أنه لا يقبل أن يتشرد أبناء لطيفة و لا يقبل أيضاً أن تتضرر حياة حفيظة بسبب العاهة التي لحقت بها و لذاك فإنه يتقدم لخطبة حفيظة لابن أخيه و وأشار إلى نظر إلى آل أشقر أربعتهم في نفس الوقت ، وبدأت جماعة بالتبرم في حين احمر وجه منصور و اكتفى بالصمت ، قال محمد أشقر :

– اعذرني يا سيد العربي ، شعيب أصغر من حفيظة كما نعلم ، و أظنه لا يزال يتبع دراسته .

قالت جماعة :

- أخذوا عين البنت و يريدون أن يعطونا هذا الصبي لنصرف عليه .

ردت عليها خالتى ثم أمى ، و ارتفعت الأصوات و حضر كل من كان متواري من آل أشقر و من بينهم حفيظة التي وقفت وسط مدخل البهو و عينها الوحيدة تطير شررا و كأنها كانت تتضيد الفرصة لتنقض على أمى، و كل ما يمكنني أن أقول في وصفها أنها طويلة و ممتلئة ، وبشرتها تميل إلى السمرة و أكبر عيوبها هي جديتها المفرطة و طبعها الحاد و غضبها السريع و عجزها عن تلبين الكلام أو تلطيفه شعرت بالغضب مما قالته جمیعة ، وشعرت برغبة في الثورة على العائلتين ، وانتظرت إلى حين ثم إسكات النساء و هم محمد أشقر بالكلام ، فسبقته و قالت :

- خالتى جمیعة الشجار قد انتهی و لا يهمّني أمره لأنني لم أكن طرفا فيه ، ولن أكون ، و أنا هنا لموضوع مستقل و هو خطبة ابنتكم ، والأحرى بكم أخذ رأيها ، فمن الظلم أن يسلبها آل مودود عينها و يسلبها آل أشقر إرادتها ، دعوها هي من ترفضني و ترد خطبتي ، فقدان عين لا يعني زوال كبراء الأنوثة .

نكزت سميرة جمیعة ، و نظرت خالتى إلى أمى و هي تحرك رأسها بطريقة دائرة ، قال عمى :

- هذا هو الصواب

فوافقه منصور على الفور ، ونظرنا جميعنا صوب حفيظة و كانت لا تزال واقفة في مدخل البهو ، تغيرت نظرة عينها و صارت أكثر بريقا ، نظرت إلى من تحت لفوق ثم من فوق لتحت دون أي اهتمام منها بالحاضرين و لما انتهت من المعاينة قالت :

- العرس قبل التنازل .

قال عمى :

- العرس يستلزم وقت و تجهيز .

قالت متجاهلة كلامه :

- ماذا قلت يا شعيب ؟

قلت :

- القران قبل التنازل أما العرس فسنؤخره للصيف .

قالت :

- موافقة على شرط أن تواصل دراستك هذه السنة فقط ثم تقطع لتبحث عن مصدر الدخل .

قلت :

- موافق على شرط أن نعيش في منزل أسرتي .

قالت :

– اتفقنا يمكنكم مناقشة أمر الصداق و القرآن مع خالي و والدي .

ثم انصرفت .

اتفق عمي مع منصور على صداق قدره ثلاثة آلاف درهم و أراد عمي دفع المبلغ ، رفض أبي بشدة و ذهب من فوره إلى البيت و أحضر المبلغ ، و تعهد عمي بالتكلف بمصاريف العرس ، أما محمد أشقر، فقد تعهد بتجهيز العروس ، و قامت أمي و خالتى و دخلنا مطبخ آل أشقر و ساعدتنا في إعداد العشاء ، فقد ثم استدعاء ستة عشرة رجلا من ساكنة القرية بالإضافة إلى إمام المسجد ليكونوا شهودا على زواجي من حفيظة إلى حين يتيسر إبرام عقد رسمي ، و هكذا صرت زوجا تلك الليلة.

بعد أن تعشينا و انصرف الشهود أخبرتني جماعة أن حفيظة ترحب في محادثتي ، ذهبت إليها و كانت تنتظرني في إحدى غرف البيت النائية ، أخبرتني أنها تريد مني أن أدخل بها تلك الليلة ، تعجبت ، و سألتها عن سبب طلبها ، فقالت أنها تريد أن تثبت لي أنها لا تزال بکرا و تتحقق هي أنني قادر على أن أكون زوجا ، استفزتني صراحتها ، وأخبرت أمي بالأمر ، رفضت بداعي أن الأمر يحتاج لإعداد و تجهيز ، لكنّي خيرتها ما بين أن تروح حفيظة معنا أو أبقى أنا معها .

في الساعة الحادية عشرة ليلا جهزت أمي و خالتى غرفة نومي على عجل ، و في الصباح الباكر استيقظت أنا و حفيظة و ظللنا ملازمين للفراش و لم نغادره إلا بعد أن طرقت علينا أمي الباب للمرة السادسة .

إنّها الحقيقة رغم غرابتها

بعد عشرة أيام من زواجي عدت إلى حي كولومبيا ، وقد حدثت بعض الأمور الطريفة في تلك الفترة قد أعود لذكر بعضها فيما بعد ، أما سبب عودتي لحي كولومبيا فلم يكن التعذر بإتمام الموسم الدراسي إلا عجزاً مني عن الإفصاح بالسبب الحقيقي لعودتي ، فقد عدت للبحث عن شيء فقدته في منزل السيد عبد القدس ، لا أعرف ما هو ، لكنّي عدت من أجله .

في اليوم التالي لعودي استدعت الشرطة عمّي للتحقيق معها في أحداث جريمة وقعت عندما كنت في القرية ، فقد حدث أن توفيت جارة لها في عقدها الرابع بعض صراع طويل مع مرض السرطان ، و أشرفت بعض النساء ومن بينهن عمّي على تغسيلها و تكفينها ، و قبيل أن يتم حملها إلى المقبرة حضرت أختها وكانت تسكن في مدينة سلا ، وأصرّت على أن ترى جثمان اختها قبل أن يتم وضعه على النعش ، و لمّا كشفت عن وجهها و جدت فمها قد تمت خياطته بخيط أبيض رفيع ، صرخت و أخبرت الحاضرين و أمر إمام المسجد بإبلاغ الشرطة بعد علمه بالخبر .

حضرت الشرطة و فتحت فم الميّة ، و وجدت داخله طلاسم و صور لمجموعة من الأشخاص غير المعروفين ، اعتقلت الشرطة النساء المتهمات ، و سرعان ما اعترفت الفاعلة التي حكم عليها لاحقاً بسنة و ستة أشهر سجناً نافذاً ، و ظلت الآخريات عرضة للتحقيق بضعة أيام بعد الحادث و من بينهن عمّي . وقد علمت أنّ بعض تلك الصور تعود لأناس أجانب من جنسيات مختلفة ، وأنّ الفاعلة تقاضت مبلغ خمسة آلاف درهم لتقوم بذلك الفعل ، أما من استأجرها فلم يذكر اسمه في القضية و ظلت تروج بعض الشائعات على أنه أجنبي يقطن بحي الحبوس في حين قال آخرون إن مستأجرها شخصية حكومية بارزة .

في منزل آل مرواني لا شيء يعلو فوق سمة السكون ، كل شيء ساكن ، البيت و أثاثه البسيط ، صفية و هدوئها العميق ، السيد عبد القدس و جلوسه الدائم ، عالم مختلف عن العالم الذي جئت منه ، عالم لا يتأثر لا بسراء و لا بضراء ، لا تدخله هموم و لا تمسّه سعادة ، لا شيء غير الرضا التام و الاستسلام الكامل .

هناك صفة على زواجي ، فقد أخبرتها عنه فاطمة ، حدثتها عن الأحداث التي أنتجت ذلك الزواج فضحت و قالت :

– لقد أفسدت مسامعي علقم ، و أظن أن خبرير سيصلبه .

– و من هذان ؟

– شيطنان الأول قرين و الثاني وكيل دائرة .

– أين تعرفت عليهما ؟

- ابحث عن سي اس لويس و سيعرفك عليهما .
- و أين أجد سي اس لويس هذا ؟
- تجده في مكتبة أبي .
- مع غوته ؟
- في الجهة الأخرى .
- في الجهة الأخرى من المكتبة ؟
- في الجهة الأخرى من المعركة .
- أي معركة ؟
- المعركة التي لا يشعر بوجودها عامة الناس .
- هذا لأنها لا تعنيهم .
- كيف لا تعنيهم وهم طرف فيها ؟
- و هل أنا في معركة الآن ؟
- أجل .
- معركة لا يوجد فيها متصررون وإنما خاسرون و خاسرون ، أليس كذلك ؟
- بل معركة فيها فائزون وفيها خاسرون .
- و متى أستشعر خطر هذه المعركة ؟
- عندما تشعر بوجود الشيطان .
- لا أستطيع فحواسي قاصرة .
- الحواس التي تقصد يشتراك فيها الإنسان والحيوان ومع ذلك فالحمار والكلب و ربما غيرهما من الحيوانات يشعرون بالشيطان ، بل و يروننه .
- و لماذا عجزت حواس الإنسان ؟
- لأن الإنسان مخلوق أرقى من الحيوان و من الشياطين . و يستطيع تسخيرهما بسلاح العقل و العلم
- حتى الشياطين !

- حتى الشياطين ، و لكنّي أظنّ أنّ بعد سليمان عليه السلام ، لا يكون ذلك إلا في حالات محدودة و منفردة .

- و كيف أحصل على العقل و العلم ؟

- العقل ذاتي ثابت ، لا يقبل الزيادة أو النقصان ، و يقبل أن يحل أو يرحل ، أمّا العلم فهو مكتسب ينفع مع العقل و يضر من دونه .

- هل يعني هذا أنه يلزمـنا العقل و العلم معاً إذا ما أردنا تسخـير الشـياطـين ؟

- قد يـسخـرـها من يـمـلـكـ عـلـماـ و لا يـمـلـكـ عـقـلاـ و لكنـ هـذـا يـضـرـهـ و لا يـنـفـعـهـ .

- و ماذا عن الذي يـمـلـكـ عـقـلاـ و لا يـمـلـكـ عـلـماـ ؟

- إنـ كـانـ فـعـلاـ يـمـلـكـ عـقـلاـ فـسيـقـوـدـ لـطـلـبـ الـعـلـمـ .

- و الذي لا يـمـلـكـ لا عـقـلاـ و لا عـلـماـ ؟

- الـدهـماءـ ، و يمكنـ تـشـبـيهـهمـ بـالـدوـابـ ، غـيـرـ أـنـ الـدوـابـ تـسـتـطـعـ رـؤـيـةـ الشـيـطـانـ كـمـاـ أـسـلـفـنـاـ .

- قـصـدـكـ أـنـهـمـ دـوـنـ الـدوـابـ .

- صـحـيـحـ .

- و إـذـا أـرـدـتـ تـسـخـيرـ الشـيـطـانـ فـأـيـنـ أـجـدـهـ ؟

- منذ عـرـفـتـكـ و أـنـتـ تـتـسـكـعـ مـعـهـ . أـظـنـ أـنـ أـبـيـ يـرـغـبـ فـيـ رـؤـيـتـكـ فـقـدـ سـأـلـ عـنـكـ مـرـارـاـ .

وـجـدـتـ السـيـدـ عـبـدـ الـقـدـوسـ غـارـقاـ فـيـ التـفـكـيرـ ، لـمـ يـنـتـبـهـ لـدـخـولـيـ . اـبـتـسـمـ حـينـ رـأـيـ ، وـ أـشـارـ إـلـىـ الكرـسيـ الـبـلاـسـتـيـكـيـ ، أـعـدـتـ الـكـتـبـ الـمـسـتـعـارـةـ إـلـىـ مـكـانـهـاـ وـ جـلـسـتـ لـأـقـصـ عـلـيـهـ هـوـ الـآـخـرـ حـكـاـيـةـ زـوـاجـيـ مجلـمـةـ دـوـنـ تـفـاصـيلـ ، وـ لـمـ أـنـتـهـيـتـ اـبـتـسـمـ وـ قـالـ :

- أـعـقـدـ أـنـ حـفـيـظـةـ سـتـكـونـ لـكـ سـنـدـاـ فـيـ الـحـيـاةـ .

- أـتـمـنـيـ ذـالـكـ .

أـغـمـضـ عـيـنـيـهـ وـ وضعـ يـدـهـ الـيـمـنـيـ عـلـىـ الشـيـمـالـ ، وـ أـسـنـدـ ظـهـرـهـ إـلـىـ الكرـسيـ ، وـ بـدـاـ كـأـنـهـ نـامـ ، ظـلـ الـأـمـرـ عـلـىـ تـلـكـ الـحـالـ لـمـدـةـ خـمـسـةـ دقـائـقـ ، لـمـ أـفـهـمـ سـبـبـ تـصـرـفـهـ وـ بـقـيـتـ أـرـتـقـبـ إـلـىـ أـنـ فـتـحـ عـيـنـيـهـ وـ قـالـ :

- أـظـنـهـمـ اـتـخـذـواـ قـرـارـ إـطـفـائـيـ ، لـمـ يـبـقـيـ أـمـامـيـ الـكـثـيرـ مـنـ الـوقـتـ .

أـرـتـبـكـتـ لـمـاـ سـمـعـتـ كـلـمـاتـهـ وـ شـكـكـتـ أـنـهـ كـانـ يـحـلـمـ . غـيـرـ أـنـهـ أـرـدـفـ :

- منذ أـنـ قـتـلـوـاـ خـدـيـجـةـ وـ أـنـاـ أـتـمـنـيـ أـنـ أـحـارـبـ ضـدـهـمـ وـ لـكـنـ خـوـفـيـ عـلـىـ أـبـنـائـيـ دـفـعـنـيـ إـلـىـ لـزـومـ

الحادي طيلة فترة إقامتي في حي كولومبيا ، و قبل فترة تولدت لدى رغبة في الانتقام منهم ولو بكشف جزء بسيط من الأسرار المتوارثة .

تساءلت في قرار نفسي إذا ما كان السيد عبد القدوس جاد فيما يقول ، و عجزت عن النطق ، و دون أي اهتمام منه بارتباكي واصل .

– لقد تناست أنهم يستطيعون الكشف عن الرغبات ، يا شعيب أظن أن رهطي لم يعد باستطاعتهم حمايتي .

– يا سيد عبد القدوس الحكي لي ما الذي يحصل معك ؟

– لن يفيد الحكي فقد بدأنا في النهاية ، أعتقد أنهم يخططون للخروج و لذاك فإنهم لن يتهاونوا معنوي أو مع غيري .

– من هم ؟ و نهاية ماذا ؟

– ليس من مصلحتك أن تعرف ، وأرج منك أن لا تعود لزيارتني إلا بعد أن أدعوك ، و أن لا تتأخر إذا دعوتك .

هممت بطرح مزيد من الأسئلة ، و لكنني أحسست أنه لم يعد يرغب في الكلام لأنه عاد و أغمض عينيه وبقيت متربدةاً بين البقاء و الانصراف إلى أن قال :

– يمكنك أخذ الكتب التي ترحب فيها و تستطيع حملها .

نهضت و نفذت في الحال ، و قبل أن أخرج سأله إن كان يرغب في قول شيء آخر فقال :

– أنت تملك سلاح البيان و أظنك ستحارب لا محالة . قد أكون السبب و لكنها إرادتك ، يمكنك الذهاب يابني و احرص أن لا تتأخر حين أدعوك .

دعتني صافية إلى شرب كوب من القهوة كانت قد أعدتها قبل خروجي من مكتبة السيد عبد القدوس وضفت حمي الثقيل من الكتب و جلست مجيبا الدعوة ، قالت و هي منكسة رأسها :

– لعاك تعتقد أننا عائلة مجانين .

– ليس صحيح .

– هل أخبرك أبي بأشياء قد تبدو لك غريبة ؟

– مثل ماذا ؟

– تلك الأمور التي قد يرغب في إطلاعك عليها .

- أيّ أمور ؟

- إنّها الحقيقة رغم غرائبها .

- لم يخبرني بشيء ، و لا أستعجل معرفة أشياء لا تعنوني ، و كل ما في الأمر هو أن السيد عبد القدوس إنسان مثقف ، و أحببت انتهاز فرصة زياراتي له للاستفادة منه .

رغبت في مواصلة الحديث معها لأنّي شعرت بوحدها ، غير أنّي كنت لم أزلأشعر بالضيق الذي سببه لي كلام السيد عبد القدوس ، و لهذا شكرتها على القهوة و انصرفت .

فيما بعد كنت دائمًا ما أقضى السبت والأحد في قريتي ، فقد صارت لي زوجة هناك . كانت أمي سعيدة بكتّتها ، فقد حملت عنها جميع أعباء البيت ، و كانت لا ترفض لها طلبا و لا تختلف لأبي أمرا ، و بعد قدومها بيومين ولدت نعجة أبي ثلاثة خراف من بطن واحدة ، و هذا ما جعل أبي يستبشر خيرا ، و فعلا فقد تحسنت أحواله المادية ، و لذلك فإنه كان ينادي على حفيظة مبروكة ، و تقرر هذا عنده لما غابت لحضور حفل ختان ابن أخيها ومات كبس له ركلته بغلة ، فظل أبي يردد و يقسم أنه لو كانت مبروكة ساعتها في البيت لما مات الكبش ، و تصادف أنه فور عودتها ولدت نعجة أخرى خروفين توأم فلم يعد بمقدور أحد أن ينبعش بكلمة تقدح في حفيظة بحضور أبي ، حتى أخواتي علمن مكانة حفيظة عند أبي فلزمن حدودهن ، أمّا أمي فكانت كلما أسدت لها حفيظة خدمة ترضت على اختي لطيفة .

بعد عشرين يوما من زيارتي الأخيرة لبيت القبط ، كنت عائدا للتو من القرية حين استوقفني منير و عادل ، سأله :

- ما الأمر ؟

قال عادل :

- نريد منك خدمة .

ثم التفت صوب منير وقال له :

- يجب أن يعلم أننا لم ننساه .

قال منير :

- اسمع يا شعيب، نريد منك أن تقوم بزيارة الحسين شرواط في السجن و تبلغه ما سنقوله لك .

- و من يكون الحسين شرواط ؟

قال منير :

- إنّه والدي .

أو لم يخبروك أنه يجب عليك أن لا تسأل

استفدت من المال الذي أعطانيه عادل في الحصول على إذن زيارة للسيد الحسين شرواط بعد عدة محاولات فاشلة ، نظرا لأنني لست فردا من عائلته ، ونظرا لأنه محكوم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ ، لأنه اعترف بقتله للسيدة خديجة أمزار .

كان في الثامنة والستين من عمره ، أول شيء لفت انتباهي فيه هو شبهه بمنير ، كانت تظهر عليه الطيبة والسكينة ، ووجود تلك اللحية البيضاء ، والابتسامة المطمئنة يستحيل أن يصدق أي إنسان أنه قاتل . سلم عليّ وابتدا بالكلام :

– هل أرسلك السيد عبد القدس ؟

– أرسلني منير ابنك ، وطلب مني أن أخبرك أن ظروف عمله هي التي حالت بينه وبين زيارتك ، وأنه سيزورك في أقرب وقت ممكن .

– أي عمل يا ولدي ، أعلم أنه لو جاء لزيارتني لأدخلوه إلى جنبي ، فهو مطلوب أيضا بتهم ترويج المخدرات والضرب والجرح .

شعرت بالحرج لافتتاح كذبتي .

– يا سيد حسين ، كل ما قلته لك صحيح باستثناء مسألة العمل ، فإنه فعلا يتمنى زيارتك في أقرب وقت ممكن .

– هل التقىت السيد عبد القدس ؟

– كانت آخر مرة منذ حوالي أربعة أسابيع .

– كيف تركته ؟

– بصحبة و عافية .

أخذ نفسها عميقا و طأطا رأسه ، أخبرته بالمئونة التي أحضرتها له فصرّح لي بأنه لا يهتم لها و أنه سيتصدق بها على رفقائه في السجن وقال لي أنه لم يأكل الحرام طيلة حياته فكيف يفعل بعد أن بلغ السبعين ، قلت متطفلا :

– لا أصدق أنك قتلت خديجة زوجة السيد عبد القدس .

– أو لم يخبروك أنه يجب عليك أن لا تسأل ؟

– لا ، لم يخبروني .

– هذا يعني أنك صرت قريبا من العائلة .

- صديق .

- ما اسمك ؟

- شعيب .

- اسمع يا شعيب ، قد لا ألتقيك ثانية ، وهذا ما أتمناه ، وأنا جد مسرور بزيارتكم لأنك صديق ابني و كل ما أطلبه منك هو أن تخبرهم جميعا و خصوصا السيد عبد القدوس ، أنت لم أندم على قرارني وأنّ ما فعلته كان واجبا و ليس تفضلا مني .

- أبشر .

- يمكنك الذهاب يا ولدي ، و رجائي الأخير منك هو أن تبلغ منير بأنني تركت وصيتي عند أخي عبد المالك .

نفدت طلب السيد حسين فيما يتعلق بأمر منير ولم تتح لي الفرصة مع السيد عبد القدوس . كنت أفكر في قطع علاقتي بحي كولومبيا ، و العودة إلى القرية لبدء مشروع صغير يتناسب مع وضعي الجديد ، غير أن رغبتي في زيارة أخيرة لمنزل المرواني كانت تحول بيني وبين التنفيذ . مضت ستة أيام على زيارتي للحسين شروطا دون حوار تذكر إلا ما كان يقع بين حمزة المرواني ، و آل بركي . في تلك الليلة أويت إلى فراشي في ساعة متأخرة من الليل ، و ما إن أغمضت عيني حتى سمعت السيد عبد القدوس يناديني ، أفقت مذعورا ، و ظللت جالسا على فراشي إلى أن صرت مستيقظا تماما ، شعرت بعطش شديد فاتجهت إلى المطبخ وأخذت قنينة ماء و ما إن بدأت في فتحها حتى سمعت نداء السيد عبد القدوس مرة أخرى ، فقررت إلى الخلف و قلت :

- من هناك ؟ أهذا أنت يا سيد ميلود ؟

و لكن في تلك اللحظة كان صوت شخير ميلود زوج عمتي يطرب البيت بأكمله ، شربت كوب ماء و فتحت الباب الخارجي ، أقيمت نظرة خاطفة على الزفاف المظلم و همم بإغلاق الباب قبل أن أنتبه إلى أنني لمحت شيئا يبرق ، أمعنت النظر ، اقتربت مني العينان صاحبتا البريق شيئا فشيئا ، اعتررتني القشعريرة و جف حلقي ، ثم تنفست الصعداء و قلت :

- أحمد ، هذا أنت ؟

- جيد أنك خرجت يريدى أبي حالا ، و طلب منك أن تغتسل قبل الذهاب إليه .

- هل أنت جاد ؟ هل قال لك هذا فعلا ؟

- أنا لا أمزح و يجب عليك أن تسرع ، أظن أن جنون أبي وصل مراحله الأخيرة .

تذكرت أن السيد عبد القدوس ألح علىّ في أن لا أتأخر عليه بعد أن يدعوني ، جهزت سطل ماء دافئ و أفرغته علىّ على عجل ثم لبست ملابسي و أخذت مفتاح الباب من فوق التلفاز و خرجت . فتحت صفية الباب ، بدت و كأنّها كانت تبكي ، و قبل أن ألقى عليها التحية قالت ، إنه ينتظرك أسرع .

كنت أبحث عن مفتاح الكهرباء لما عجزت عن تحديد مكان جلوس السيد عبد القدس حين سمعته يقول بصوت خافت :

– لا تضي المصابح .

تسمرت في مكاني .

– تقدم يا شعيب لا تخف .

تلمسست طريري إلى أن وصلت إلى الكرسي البلاستيكي ، و قبل أن أجلس قال :

– لا تجلس . هناك شيء على الكرسي خذه و انصرف .

وضعت يدي على الكرسي ، وجدت شيئاً أسطواني الشكل ملفوف في قطعة قماش ، حملته و قلت :

– هل أنت بخير يا سيد عبد القدس ؟

– انصرف حالاً .

تسرب إلى الخوف و اتجهت أبحث عن الباب و لما وجدته سمعته يقول :

– لا تفتح ذلك الشيء الذي بين يديك إلا بعد أن تكون مستعداً للموت و إن لم تستطع فأحرقه .

قالت صفيحة بعد أن أبصرت الثوب القرمزي بين يدي :

– أحتجاك بجاني غداً .

– غداً !

– قبل طلوع الشمس أريدك هنا . أما الآن فيجب عليّ أن أودعه .

بعد مغادرتي لبيت المرولاني تشوشت و شعرت ببرد شديد و زاد الأمر سوءاً، لما وجدت كلباً أسوداً ينظر إلى النافذة المغلقة التي تقع في مكتبة السيد المرولاني ، أسرعت في العودة ، و قبل أن أغلق الباب أقيمت نظرة خاطفة على الزقاق ، و كان خالياً باستثناء كلب أسود ينظر صوب بيت عمتي . أخذت في تقليل الأسطوانة فور دخولي ، كانت ملفوفة في ثوب قرمزي اللون ، فكرت في إخراجها منه ، ثم تراجعت و قلت في نفسي لست مستعداً للموت ، و وضعتها في حقيبتي .

فشلت جميع محاولاتي في النوم و في الصباح الباكر ، غادرت منزل العمّة وأغلقت الباب ببطيء حتى لا أوقفهم . وجدت جميع آل مرولاني جالسين و كان على رؤوسهم الطير ، قال حمزة بعد دخولي :

– أهذا هو شعيب ؟

أجايه أحمد :

– نعم .

قالت صفية :

– ادخل يا شعيب و ألقى نظرة على أبي ، و أخبرنا هل هو بخير ؟

– ماذا يحدث ؟

قال عادل :

– سأدخل معك هيا لا تخف ؟

قال منير :

– سأافقكما .

دخلنا المكتبة و وجدها السيد عبد القدس ملقى على الأرض بالقرب من كرسيه جثة هامدة و قد سالت الدماء من أنفه وأذنيه ، شعرت بالخوف، أمّا عادل و منير فقد ظهر عليهما الارتياح على الرغم من الحزن الذي اعتبرى وجه عادل ، بعد خروجنا تساءل حمزة :

– هل فُصل رأسه عن جسده ؟

قال منير :

– لا

قال حمزة :

– هذا جيد لتعلم إمام المسجد .

قال عادل :

– لا ليس بعد، نحتاج إلى تنظيف الدماء التي سالت من أذنيه و أنفه .

و هذا ما قام به منير و عادل ، جلست أنظر إلى صفية و هي تبكي بصمت ، أمّا أحمد فقد نظر إلى جثة أبيه طويلا ثم غادر المنزل من دون أن ينبعش بحرف واحد ، و لم أره بعد ذالك أو أعرف مكان تواجده إلى أن جاء ذلك اليوم الذي ارتكب فيه تلك المجازرة المرهقة .

حضر الطبيب الشرعي و وقع تصريح الدفن دون معاينة الجثمان ، و أشرف إمام المسجد و الجيران على جنازة السيد عبد القدس . حضر خليفة أمرار و كان سندًا لصفية ابنة أخته في محنتها ، أمّا أنا فقد اضطررت إلى العودة لبيت عمتي للوقوف معها في كربها ، فقد توفي زوجها ميلود في صبيحة نفس اليوم ، و تحدثوا عن دماء سالت من أنفه و أذنيه .

بحث عن دميان

لم أخبر أحداً بتلك الوقائع التي حدثت لي ، و كنت أحاوِل الربط بينها للحصول على نتيجة منطقية مقبولة ، و كان يتيسر لي ذلك في كل حالة على حدا ، و لكن بجُمِع الحالات مع بعضها البعض كان التفسير المنطقي يبدُ شبه مستحيل .

رفضت صافية الانتقال للعيش مع خالها و ظلت في بيت آل مرواني تقضي معظم الأوقات بمفردها، كنت أزورها يومياً برفقة فاطمة و نبقي معها إلى ما بعد العشاء ، لم تكن فاطمة تعلم أن السيد المرواني مات بنفس الطريقة التي مات بها والدها ، و لم يكن يعلم ذلك إلا أنا و آل مرواني . دخلت مكتبة السيد عبد القوس مراراً بإذن صافية و حصلت على العديد من الكتب ، و في أحد المرات وجدتها مقلوبة رأساً على عقب ، و قد بعثرت الكتب في شتى الاتجاهات ، حتى كرسي السيد عبد القوس و جدته منزوع من على الصندوق الخشبي ، أخبرت صافية عن حالة المكتبة قالت أنها لا تعلم فهي لم تدخلها منذ مات والدها و ربما يكون السيد خليفة هو من فعل ذلك فقد دخل إليها صبيحة ذلك اليوم .

و كنت يومياً أخرج الاسطوانة و أفك في حرقها و العودة إلى القرية ، و بقيت على هذا التردد إلى أن اعترض طريقي إلى الثانوية ، رجل كهل حسن الهنadam ، و أبلغني أن السيد بوفلاح يرثي الدردشة معي ، سأله من يكون بوفلاح فأشار إلى سيارة مرسيدس مركونة على بعد بضع خطوات ، عرفت على الفور الشخص الذي يمكن أن ألتقيه بداخلها ، و صدق تخميني ، فقد كان السيد عمر بوفلاح الضيف الذي كان عند السيد عبد القوس يوم زيارتي الأولى لمنزل آل مرواني ، جلست بالقرب منه على المقعد الخلفي لسيارة في حين ظل الرجل الكهل خارجها ، كان عمر بوفلاح في حوالي الخامسة والأربعين من عمره طويل القامة ، أسمرا اللون يبدى على ملامحه الدهاء و الثقة في النفس ، كثير الابتسام ، يستطيع الكلام لساعات دون أن يتعب أو يمل ، و مع ذلك فإنه لا يقول إلا ما يرغب في قوله من تواقه الأمور ، ولذلك فإنه يجوز لنا أن نقول عنه أنه ثرثار حازم .

– شعيب مودود الصديق الأخير لسيد عبد القوس المرواني .

– أنا لم أكن صديق عبد القوس المرواني و إنما كنت و لا أزال صديق صافية ابنته .

– اعتقدت أنك كنت تجالسه قبل موته .

– لا ، لم أكن أفعل .

– إذا كنت صادقاً فقد خسرت الكثير .

– هل أنت متأكد ؟

– لن تستطيع تصوّر مقدار تلك الخسارة ، لقد فقد بموته مفتاح عظيم .

– مفتاح ماذا ؟

- مفاتح مستودع الكنوز التي لا تقدر بثمن .

- هل تقصد فعلاً السيد عبد القدس المرواني رحمه الله؟

- السيد عبد القدس كان في ما مضى من أساطير الكواليس .

- لم أكن أعرف.

- اسمع يا شعيب . أنت لم تجالس السيد عبد القدس إلا لأنك كفؤ لذا لك ، و طريقة حديثك معى خير دليل على كفاءتك ، ولكنني نختر الطريق فإنه يسرّنى أن أجيب على تساؤلاتك و تفعل أنت نفس الشيء معى ، فما رأيك أن تصدقنى و أصدقك .

اصطنعت شعور الاستغراب و التعجب ، و فطن لذالك و قال :

- أؤك لك أني كنت أسعى إلى المعرفة كما سعيت إليها أنت بآفائك للمرؤاني ، و لا مصلحة لي في إيدائك و لا قدرة لي على ذالك .

- سأخبرك بصدق عن بعض أسئلتك وأرجو منك قبل ذالك أن تخبرني عن المعرفة التي كنت تبحث عنها .

- هذه بداية غير جيدة ، ولكن اسمع ، كان السيد عبد القدس فرد من عائلة كبيرة تحمل ألقاباً متعددة في العالم كله ، ولكنها عائلة واحدة في الأصل. استطاع أفرادها احتكار معرفة سرية تدعى الجبت ، بها تقليدوا أعلى المناصب عبر التاريخ ، والذي يجرا على كشف نيتها في السعي لمشاركة تلك المعرفة من خارج العائلة غالباً ما تتم تصفيته ، وما كنت لأجرا على ذلك لو لا أنني علمت أن السيد عبد القدس ثم بيذه خارج العائلة ، فتملقته زمنا وأسديت له بعض الخدمات ، وقد وعدي بأن يرشدني إلى المصدر الذي بواسطته سأنازل بغيتي لكنه مات ولم يفعل .

- لا أظن أن السيد عبد القدس يخلف وعدا .

- لقد أرسل لي قبل موته بيوم واحد رسالة مكتوب فيها (ابحث عن دميان) .

- هل قصد دميان الخاص بهerman هيسه ؟

– بل قصد دمیان الحقيقة .

- دمیان الحقیقی !

- إن كنت حصلت على شيء يهدى في سعيك فبإمكانك تحديد السعر الذي ترغب فيه.

- ربما كنت أجهل الكثير عن السيد عبد القدس ، و كل الأحاديث التي دارت بيننا لا علاقة لها بهذه الأمور التي تدعىها .

- ألم يعطيك شيء؟

- مثل ماذا ؟

- أي شيء .

- لقد أعارني بعض الكتب وأعدتها إليه .

- هل تذكر عنوانينها ؟

- روایات و کتب تاریخ و فلسفه و غیرها .

- لا شيء آخر ؟

- هذا كل شيء .

- إذا غيرت موقفك و قررت المساعدة فيمكنك زيارتي في أي وقت .

- أين ؟

- توجه إلى بلدية سباتة و اسأل عن الرئيس .

هكذا انتهى لقائي الأول بالسيد عمر بوفلاح ، وقد جعلني لقائه أجزم أن كلام السيد المرواني لم يكن محض أوهام أو وساوس أنتجتها الوحدة ، وشرعت في استرجاع كل ما يمكنني تذكره من كلامه ، فكان أول ما تذكرته قوله لي : (قد أكون السبب ولكنها إرادتك) .

اتجهت مباشرة إلى منزل المرواني ، كان الوقت ظهرا ، فتح حمزة الباب لي بحذر و ترقب ، فقد كانت الشرطة لا تزال تبحث عن أخيه ومنير ، في الداخل وجدت عادل و منير يجلسان على مائدة الطعام ، أخذ حمزة مكانه بينهما و دعاني إلى مشاركتهم ، جلست في الوقت نفسه الذي خرجت فيه صفية من المطبخ ، سألتني عن فاطمة فأخبرتها أنها ستجيء في وقتها المعتمد ، و أني عرجت لأنني أنوي استعارة رواية دميان .

قال عادل :

- أنصحك أن تبتعد و أن تنسى كل كلمة قالها لك أبي .

ضحك حمزة وقال :

- هل تظن أن أبي أخطأ في اختياره لهذا النزق ؟

- للأسف أبي لا يخطأ في مثل هذه الأمور .

قالت صفية :

- لقد مات أبي و قد فعل كل ما بوسعه ليعيشه ، فلا تطعنوا فيه حيا وميتا .

قال حمزة :

- حسناً حسناً لم نقل شيئاً .

أكلتُ بعض القيمات و أخذت رواية دميان و غادرت .

يقول لك الأسياد

في زيارتي التالية للقرية اغسلت و وضعت الأسطوانة و سط ثيابي المتسخة و حملتها معي ، كان يوم جمعة ، وصلت بعد العصر ، أخبرتني حفيظة أننا مدعوون للعشاء في بيت والدها بطلب من حالها محمد أشقيير ، رفضت أمي الذهاب معنا و تعرّرت بالتعب ، أما أبي فكانت روحه تكاد تغادر جسده كلما غادرت حفيظة المنزل فرفض هو الآخر و طلب منا أن لا نتأخر .

في منزل أصهاري لم يكن هناك شيء غير طبيعي باستثناء الحفارة المبالغ فيها التي استقبلني بها محمد أشقيير . بعد العشاء اختلت حفيظة بأمها و أخواتها و زوجة حالها السيدة سميرة ، و بينما كان منصور يعد الشاي سألهي السيد محمد :

– هل تورطت في أمر ما بالدار البيضاء ؟

– ما سبب سؤالك ؟

– أظن أنك فعلت .

– وضح

شرع محمد يحكي كيف زاره قبل ثلاثة أيام السيد العامل برفقة شاب يبد من مظهره و من معاملة السيد العامل له أنه ذو منصب رفيع ، و كيف عمت الفوضى جميع مكاتب القروية لزياراتهما المفاجئة ، طلب ذلك الشاب من السيد العامل أن يتركه برفقة محمد أشقيير و قال بعدما صارا لوحدهما :

– لا تخاف يا سيد أشقيير ، إنها مجرد زيارة عادية من أجل التعارف .

– تشرفني زيارتكم سيدتي و زيارة السيد العامل .

– علمت أنك خال السيدة حفيظة زوجة شعيب مودود ، هل تتفضل و تؤكد لي ذلك ؟

– أجل سيدتي ، معلومتك صحيحة .

– ماذما تعرف عن شعيب ؟

– إنه ابن قريتنا و ترعرع بيننا ، و زواجه من ابنة أخيي كان لظروف خاصة .

– أعرف ذلك .

– هل تورط في مشكلة ما ؟

– ليس بالضبط ، الأمر يتعلق بمتاهة دخل فيها عن طريق الخطأ .

أخبرني أشقر أنه شعر بالرعب من كلامه و بدأت يداه ترتعشان ، فلاحظ الشاب ذلك و قال :

– جيد أن ذلك الفتى لا يثرثر كثيرا .

– كل ما أعلمه هو أنه ينوي إتمام عامه الدراسي في الدار البيضاء .

– و هذا يكفيك ، لي عندك رجاء .

– أمرك .

– أخبر السيد شعيب بأنه متى أدرك أنه لا يملك الجرأة على الاقتحام في ذلك الشيء الذي حصل عليه و أراد التخلص منه فما عليه سوى تحديد السعر الذي يرغب فيه .

أخرج السيد أشقر ظرفا من جيب قميصه و أعطاه لي بحذر شديد ثم قال :

– لقد أعطاني هذا الظرف و طلب مني أن أسلمه لك دون أن أفتحه . و بأن لا أخبر أي أحد بما دار بيدي و بينه من حديث ، وقد فكرت بأن أستغل الفرصة و أحده عن سلمي الوظيفي و قبل أن أتكلم أشار لي بيده أن لا أتكلم ثم خرج ، و بعد ثمانية و أربعين ساعة صدر قرار ترقتي .

أخذت الظرف و وضعته في جيبي ، لم يعي منصور طبيعة الحديث الذي دار بيدي و بين محمد ، وفي الوقت الذي تحلق فيه جميع أفراد أسرة منصور أشقر حول التلفاز في غرفة مجاورة نادى محمد على زوجته و طلب منها الاستعداد للمغادرة و قال لي :

– انتبه على نفسك .

– لا أعلم ماذا حدث و أطنه سوء تفاهم لا غير .

ترجمتني جماعة أن نبيت عندهم تلك الليلة و كانت قد حاولت مسبقا مع ابنتها و لكن حفيظة رفضت امتلاها لأمر والدي الذي طلب منا أن نسرع في العودة ، غير أنني أقنعتها بأن أبي ينام باكرا و سنذهب للبيت في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ . و هكذا بتنا تلك الليلة في منزل صهري ، و في الصباح عندما ذهبنا للمنزل وجدنا أبي يتفقد مواشييه الواحدة تلو الأخرى ، و كانت السعادة بادية عليه لاما وجدها كلها بخير ، و لما جلست أتحدث معه في انتظار إعداد الفطور تعلالت الصيحات و العويل ، فقد دخلت أمي لتتفقد والدتها حفيظة العيادي ، فوجدتها ميّة ، و لجأ الغرفة حيث يرقد جثمان جدتي فوجدتها متقبسية و قد سالت دماء من أذنيها و أنفها ، طلبت من حفيظة أن تحضر لي منشفة و ماء ، ثم شرعت في تنظيف الدماء ، أدركث حفيظة حرسي على إخفاء الدماء ، فقامت بإغلاق باب الغرفة و لم تفتحها إلا بعد أن انتهيت .

حضر الجنازة معظم عائلة العيادي ، و عندما كان يسأل أحد ما عن الوقت الذي ماتت فيه ، كانت أمي تقول أنها توفيت في الصباح و كان أبي يعقب عليها و يقول توفيت البارحة ليلا عندما كانت حفيظة زوجة ابني غائبة عن البيت ، و هذا كان يجعل أخواتي و حفيظة يضحكن على الرغم من أنهن أو يفترضن في حالة حداد . و الصواب في المسألة هو ما قاله أبي و يتضح ذلك من الدماء المتقبسية ، و إنما

كانت أمي تقول في الصباح حتى لا تتهم بالقصص في رعاية والدتها ، لأنها لم تنفدها منذ مغرب الليلة الفائتة .

قالت لي حفيظة عندما آتينا إلى فراشنا أنها توقعت أن يحدث أمر سيء منذ أن رأت ذالك الكلب الأسود ، سألتها أين رأته و متى ؟ فقالت أنها رأته بعد قدومني بحوالي نصف ساعة و ذالك أنها خرجت صوب منزل عائلتها لتعلمهم بموعدهم قدومنا ، و عند عودتها وجدته واقفا ينظر صوب منزلنا .

فتحت الطرف الذي أخذته من محمد أشقيير و لم أجده فيه غير ورقة صغيرة مكتوب عليها رقم هاتف ، دوّنت الرقم بقلم الرصاص على غلاف رواية دميان ، و أعطيت الورقة لحفيظة لترفقها . و بعد ثلاثة أيام حضر إلى منزلنا ابن خال والدتي السيد فضيل العيادي ، تعجبنا لقدومه من فرنسا بسبب وفاة عمته ، فالمعروف عنه أنه رجل غني تذكر لعائلته ، حتى إنه لم يحضر لزيارة والده حين كان على فراش الموت ، و اكتفى بإرسال المال له ، جاء في سيارة فخمة من نوع فورد ، أظن أنه قام بكرائها و كان برفقته رجل ضخم ذو ملامح أوروبية لا يتكلّم أبداً و إنما يتلقى الأوامر و ينفذ ، قدم التعازي لوالدي و لخالتني سمية و نظر إلى مروان ابن خالتني و قال :

– أهذا هو شعيب ؟

قالت خالتني :

– هذا مروان ابني و أرج منك أن تتوفر له عقد عمل بفرنسا .

التفت عنها و قال أين شعيب ؟ استغرب الجميع من سؤاله ، و طلبت أمي من حفيظة أن تناجي عليّ ، صافحته فأمسك بيدي و أجلسني بجانبه و ظل يحادث أفراد العائلة ببرهة من الزمن ثم قام و شرع بودعهم و أعطى الصبيان و النساء مبالغ نقديّة لا بأس بها ، ولمّا أردت توديعه وضع يده على كتفي و قال :

– أريد منك أن تشيّعني إلى خارج القرية .

قالت خالتني سمية سيدهب مروان معكم و غمزت ابنها فقفز إلى داخل السيارة ، قال فضيل الأمر لا يحتاج فشعيب يكفي ، و نظر إلى الرجل الضخم الذي قام على الفور بامساك مروان من ذراعه و سحبه خارج السيارة . جلست بالقرب من السائق في حين جلس فضيل و الرجل الأوروبي في المقاعد الخلفية ، و بعد ابعادنا عن القرية بحوالي ألفي متر توقفت السيارة و نزل منها السائق و الرجل الأوروبي ثم ابتعدا عن السيارة ، قال فضيل :

– هنا يا شعيب .

قلت بعدما انتقلت إلى جانبها :

– ما الأمر ؟

– أنت أخبرني ما الأمر ؟

شعرت بالغضب من لهجته المتعالية و أسلوب التحقيق الذي حدثني به .

- ظننتك هنا بسبب وفاة عمتك .

- أنا لم أحضر حين مات والدي ، فكيف يكون موت عمتى سبباً لحضورى الآن ؟

- و هل يمكنك أن تخبرني عن سبب زيارتك ؟

- بل أنت أخبرني عن سبب زيارتي .

- و من أين لي أن أعلم سبب زيارتك ، و إذا علمت فإبني غير ملزم بإخبارك ، و أظن أنّ عليك الذهاب حتى لا تتأخر عن موعد إقلاع طائرتك .

- كنت متيقناً أنهم لم يخطئوا .

- أرج منك أن تأذن لي في الانصراف .

- حلّت بفرنسا كمهاجر غير شرعي و أنا الآن أملك مجموعة مطاعم تعتبر من أكبر وأرقى المطاعم في أوروبا كلها ، و لم أصل إلى هذه النتيجة إلى بعد جهد و مشقة لقد قمت بأعمال متعبة لمن تستطيع تصورها ، أم أنك تريدينني أن أخبرك عنها ، لقد قمت بالمتاجرة بالمخدرات و بالأسلحة ، و بالأعضاء البشرية ، و بالرقيق الأبيض و الأسود و الفرزحي ، لقد قمت بالسرقة و التزوير و القتل و أشياء أخرى فظيعة لمن تخطر على بالك ، لقد قمت بكل شيء طلباً مني و مع ذلك فقد ظلت في أسفل الهرم و لم أحلم يوماً بأن ألتقي فرداً واحداً من الأسياد أبناء الآخرم ابن قسطنطين ابن هرقل ، و بسببك تحقق حلمي ، لقد نقلت بطائرة خاصة معصب العينيين إلى مكان ما في روما لأجد نفسي أمام ثلاثة منهم بملامحهم الباردة المرعبة و نظراتهم الميتة ، و أنا هنا مبعوث إليك بر رسالة شفوية منهم ، فهل عرفت الآن سبب انفعالي ؟

- مبعوث من من؟ و لمن؟ و لماذا؟

- لا تتغابي يا ولد فأنت غبي بطبيعتك ، و بسببك أنا الآن رجل ميت ، و إن لم تشفع لي السنين التي قضيتها في خدمتهم فسينتهي أمري حتماً بعد تبليغي الرسالة .

أخفيت شعوري بالرعب و قلت :

- إذا لا تبلغ الرسالة ، و حاول أن تزور طبيب أعصاب فأظنك لست على ما يرام .

تغيرت ملامحه و ظهر الانكسار و الاستسلام عليه لأول مرة ثم قال بنبرة مغايرة :

- هيئات فإن بلغت فهناك احتمال أن أنجو ، أما إن لم أفعل فموتي و موت زوجتي و ابنتي الغالية أمر محقق .

- هون عليك يا عم فضيل ، و لنناقش الموضوع ، فهناك قانون يسري على الجميع .

ضحك ساخراً و قال :

- يقول لك الأسياد إنّ الشيء الذي حصلت عليه يخصهم وقد أصبح ملك لك الآن ولك ثلاثة خيارات ، اختر أيها شئت ، الأول أن تعمل به في صفتهم ، و الثاني أن تسلمه برضاك لمن يسعى في الحصول عليه و الثالث أن تبقيه عندك دون استعماله ، و الرابع انقلع من سيارتي فورا .

قلت قبل أن يجلس الرجل الأوربي بجانبه :

- ألا تريد إبلاغ أسيادك بردي ؟

- كلفت بإيصال الرسالة ولم أكلف بأخذ الجواب .

قررت في تلك الساعة العودة إلى الدار البيضاء ، فهناك أجوبة لا بد لي من الحصول عليها . أخبرت حفيظة أني سأسافر في صبيحة ذلك اليوم فأنارت المصباح ثم جلست قبالي و قالت :

- يا شعيب أنت زوجي ، و أنا سعيدة بهذا الزواج لأنني أنا من اتخذت القرار فيه ، و كلما تيقنت بأنك تخفي أسرارا عن المحظيين بك كلما ازداد حبي لك ، و لطالما كنت أمقت ضعف أبي و إخوتي لأنهم لا يكتمون شيئا عن زوجاتهم ، و تيقن أنني سأكون لك سندًا في يسرك و عسرك و لن أنقل عليك أو أحول دون تحقيقك لما تسعى إليه ، و مطلبى الأول والأخير هو أن تعلو أسرتنا ابتداء من السنة القادمة ، و أن تراعي حقي في الفراش ، أمّا دون ذلك فافعل ما شئت .

لمّا سمعت كلامها تذكرت كلام السيد عبد القدوس فقفزت من مكاني و أخرجت الثوب القرمزي و ما يحتويه و وضعته تحت ثيابي في الدولاب و قلت :

- هذه وصية تركها عندي صديق توفي قبل أيام ، و كان من آخر ما قاله لي أنك ستكونين لي سندًا في الحياة ، فأرجو منك أن لا تحركيها من هذا المكان و لا تلمسها و لا تدعى أحدا يلمسها .

تهلللت أساريرها بسبب الثقة التي منحتها لها و قالت :

- سأحرص على أن لا يدخل أي شخص غرفتنا و لن أفرط في مفتاح الدولاب ، و الان تيقنت أنك لا تنويني تطليقي بعد أن انتهت مهنة أختك .

من يحاول كشف وجودهم يتم إسكاته

سعيت للحصول على بعض الأوجبة من صفيحة المرواني ، وجدت حالتها الصحية ازدادت تدهورا فأجلت ذلك إلى أن تتحسن ، وبعد يومين بلغني أن ابن خال والدتي فضيل العيادي وُجد مقتولا داخل مرحاض في مطار باريس الدولي ، وخلصت التحقيقات إلى تورطه في تجارة المخدرات ، وأن قتله كان نتيجة تصفيية حسابات ، شعرت في بادئ الأمر بالخوف ثم تحول الأمر إلى الشعور بالذنب والمسؤولية عن موته وظل ذلك الشعور يلازمني إلى أن التقيث بابنته صوفيا العيادي في المحطة الثالثة من رحلتي ، واعترفت لي أنها هي من أمرت بقتل والدها فور وصوله إلى باريس وأن حارسه الشخصي وهو ذلك الرجل الأوروبي الذي كان يرافقه في زيارته للمغرب هو من قام بالتنفيذ و سندكر التفاصيل والأسباب في حينها .

استقبلاني عمر بوفلاح في مكتبه بحفاوة ، و أمر لي بعصير ، فلت له:

– لم أتوقع يوماً أن استقبل في مثل هذا المكتب .

– و لهذا يجب عليك أن تغادر الكواليس بأسرع وقت .

– أنا لست في الكواليس ، أنا على الخشبة .

– لا يا شعيب لقد انتقلت من بين الجمهور مباشرة إلى الكواليس وهذا ما يزعجي .

– و هناك جمهور أيضا !

– الدهماء و العامة .

– و ما هو معيارك في تصنيف الناس ؟

– الدم .

– و كيف يكون ذلك ؟

– الماء سبب تواجد الناس و الدماء سبب تميزهم و تغايرهم .

– لا أختلف معك أنّ من الماء خلقت جميع الدواب و الإنسان من بينها ، ولكن كيف يمكن للدماء أن تكون سبباً في تميزهم ؟

– سأخبرك بأمر لم يعد سراً منذ وقت قريب .

– تفضل .

– لمّا أهبط آدم من الجنة كانت حواء حامل بقايا و أخته إقليميا ...

قاطعنه :

- هل تقصد أن حواء حبت بقبيل و إقلیما لـما كانت لا تزال في الجنة ؟

- هذا صحيح ولكنها ليست جنة الخلد كما تظن ، فجنة الخلد رغم أنها كانت موجودة حين خلق آدم إلا أنه لم يدخلها أبداً و حين يدخلها فإنها لن يخرج منها .

- هذا غريب !

- وفي حمل حواء الثاني الذي كان على الأرض، حملت حواء بهابيل و أخيه ليودا، ثم استمر الأمر هكذا في كل بطن توأم ، و اقتضت شريعة آدم أن لا يتزوج أي ذكر بأخته التوأم ، ولكن قabil لم يرضى بذلك و ليس السبب هو أن إقلیما كانت أجمل من ليودا كما تعتقدون .

- و ما هو السبب حسب اعتقادك أنت ؟

- لقد اعتقد قabil أنه و أخيه أسمى من أهل الأرض ، و لهذا يجب أن لا تختلط دمائهم ، و اعترض على شريعة آدم فلجهوا إلى تقديم القرابين كحلٍّ نهائٍ و عادل للطرفين ، و لكن قabil ما كان ليرضى أن تختلط دماء أخيه السماوية بدماء أخيه الأرضية فقتلته .

- هذه قصة محبوبة لولا أنني أسمع بها أول مرة .

- في العصر الحديث لم تعد هذه الرواية سرًا فقد تحدث عنها بعض الباحثين بإسهاب .

أعجبتني الحماسة التي كان يتكلم بها السيد بوفلاح وأحبيت أن أظهر له اهتمامي بالموضوع فقلت :

- أفهم من كلامك أن الدماء التي تجري في عروقى إما أنها تعود لأبناء آدم الذين تم الحمل بهم على الأرض و إما أنها تعود لفأييل و أخيه إقلیما اللذان حملت بهما حواء في الجنة .

- ذاك تفصيل دقيق يحتاج الكثير من المعرفة ، و لكن يمكن أن تقول أن الدماء التي تجري في عروقك إما أنها تعود لمعصية و إما أنها تعود لطاعة .

- لنفترض أنني مقبل على عملية جراحية و أحتاج إلى كمية من الدم فكيف يتمنى لي أن أعرف إذا ما كانت الدماء التي سأستعملها دماء طاعة أو دماء معصية ؟

- و لهذا فإن تحاقن الدم حرام عند أغلب المؤمنين بالديانات السماوية .

- كلامك ليس صحيح ، بحسب علمي التحرير يختص بشرب الدم .

- الدم المسقوح حرام سواء أشربته أم حقنته ، و هذا لا يشمل الاضطرار .

- نستخلص من كلامك أن الدم الذي يجري في عروقنا فاعل رئيسي في تمزيقنا .

- أجل ، و لهذا فإن الشيطان يجري مجراه .

قلت مازحا :

- إذا فالشيطان يمسك بمخنقا من مجرى الدم .

لم يعتبرها مزحة و عقب عليها :

- تماما ، فهو يسعى لتخريب السند .

- أي سند ؟

ضحك السيد عمر و كأنه يتعجب من جهلي بأمور تبد في نظره من البديهيات .

- إذا أخذنا كلمة سند بما اصطلاح عليه رواة الأخبار فإن الدماء يمكن اعتبارها سندًا إلى الفطرة و كلما كثُر الطائعين في السند و هم الأب و الجد و أب الجد إلى آدم كلما كانت الفطرة سليمة أكثر ، و كلما كثُر العصاة في السند كلما كانت الفطرة سليمة أقل ، و لهذا فإن الساعة لا تقوم إلا على لکع ابن لکع ابن لکع ، أي سند مخرب تماما .

لم أرغب في مطالبه بالمراجع التي قاضته إلى هذه الاستنتاجات الغريبة حتى لا يطول بنا الأمر . و أردت أن ننهي ذالك الموضوع فقلت :

- تعمقت كثيرا في مسألة الدماء هاته و لا أستطيع أن أجاريك فيها ، فما رأيك أن ننتقل إلى موضوع آخر حفاظا على وقتنا ؟

- إنها معرفة لا أعلم منها إلا الفهرس ، أما محتوى الكتاب فقد احتكره الذين يشربون الدماء .

- و من هؤلاء ؟

- أظن أنّ بجعبتك معلومات جديدة تריד مشاركتها معي .

- هل تعرف أحدا من أحفاد الأخرم ابن قسطنطين ابن هرقل ؟

شخصت عيناه و قام من على كرسيه و جلس على الكرسي المقابل لي ثم قال :

- كم تريد ثمنا له ؟

- لقد قلت لك يا سيد عمر أنّي لا أملك الشيء الذي تبحث عنه .

- أنت تكذب .

-أشكرك .

- إنّ الذين سألت عنهم يجب أن لا يعرف أحد بوجودهم .

- و هل هم موجودون فعلا ؟

- أجل ، و من يحاول كشف وجودهم يتم إسكاته .

- و هل سبق لك أن التقى أحدا منهم .

- أنا لا أحلم بلقاء الأسياد الذين في نيويورك ، فكيف أحلم بلقاء أسياد روما ؟

- إذا كنت لا تسعى إلى لقاء هؤلاء الأشخاص فإلى ماذا تسعى يا سيد عمر ؟

- أسعى إلى المعرفة .

- المعرفة وسيلة و ليست غاية .

- لقد سمعت مثل هذا الكلام من السيد عبد القدس و قلت له حينذاك المعرفة بالنسبة لي غاية .

- و بماذا أجابك ؟

- نعترني بأنني تجسيد للأنوثة في أعلى دراجاتها .

- و ماذا قصد بذلك ؟

- لم أعرف قصده و لا يعنيني وقد مات دون أن يفي بوعده لي .

- لقد أخبرتني أثلك تبحث عن المعرفة التي تدعى الجبّ و السيد عبد القدس ذلك على المصدر الذي يتسعى لك من خلاله الحصول على مبتغاك ، و ليس عليك إلا أن تجد دميان .

- يستحيل أن أنتقي بدميان مالم يرد هو لقائي .

و قفت استعدادا للرحيل ثم قلت :

- حاول يا سيد عمر .

صافحني بوجه متجمهم و قال :

- لا أعرف عن الأسياد أكثر مما تعرف عنهم ، و لقد أثبت يا سيد شعيب أنك لاعب جيد و لذلك أرج منك أن تعدنـي بزيارة أخرى .

سيكون لك أولياء وأعداء

ولد هيثن عيطون في مدينة ليون الفرنسية ونشأ فيها ، و في بداية شبابه انخرط في حياة اللهو و المجون ، و لكن تعارفه مع شباب ينحدرون من مدينة صيد اللبنانية جعله يُغير مسار حياته ، و قد كان من أصحابي في المحطة الرابعة من رحلتي ، و لما تبين لي بوضوح من يمسك بالخيوط التي كانت تُحركنا في تلك المرحلة ، غادرت المحطة . أمّا هيثن فقد تذكر لي و لزملها إلا أن قُتل فيها ، و كان حالياً معه و مع باقي أصحاب المرحلة كما سندكره الحال أصحاب الكهف الأفلاطوني ، أمّا الآن فنحن لا نزال في المحطة الأولى .

لما قرر هيثن عيطون الابتعاد عن حياة اللهو و المجون كان أول شيء فكر فيه هو الزواج ، و لأنّه ينحدر من أصول مغربية فقد قرر أن تكون زوجته مغربية الجنسية و الهوية ، فاصطحب معه أخته الكبرى السيدة نجاة عيطون و كانت تجيد اللغة العربية لأنّها قضت معظم طفولتها بالمغرب . لم تكن هناك وجهة محددة ، و لم تعجبه أي واحدة من الفتيات الثلاث التي أرتهن له أخته ، و في اليوم الخامس من زياراتهما للمغرب كانوا يتوجان في سوق القرية حين أبصر هيثن عمتى نعيمة برفقة ابنتها فاطمة ، فأمسك أخته التي كانت تسبقه ببعض خطوات من ثيابها و شرع يجرها و يشير لها إلى فاطمة و هو يردد هذه عروس ، هذه زوجة .

لحقت نجاة بعمتي و أخبرتها أن أخاها أعجبته فاطمة و أنه يرغب في الزواج منها ، و تابعت تحكي لها كيف أنها قدمت فرنسا خصيصاً للبحث عن عروس ، أجابتها عمتي بأن فاطمة ترحب في مواصلة دراستها و أنها لا نية لها في الزواج في الوقت الحاضر و خصوصاً أنه لم يمضي الكثير من الوقت على موت والدها ، و حينما التفتت إلى فاطمة لتتأكد هي بنفسها هذا الكلام وجدتها تسرق النظرة تلو النظرة إلى هيثن و قد احمر وجهها ، أمّا هو فقد ركّز بصره عليها و لم يسمح لعينيه أن تطرفها ولو مرة واحدة . و بعد حوالي ثلاثة أشهر كانت فاطمة تستقل الطائرة رفقة زوجها إلى فرنسا .

بعد زيارتي للسيد بوفلاح مكثت حوالي ساعتين و أنا أتصفح رواية دميان ، و في المساء سألت فاطمة :

– هل صفيحة لا تزال طريحة الفراش ؟

– لا و لكنها تتصرف بغرابة ؟

– كيف ؟

– أظن أنه يجب عليك أن ترافقني غداً .

فتحت لنا صفيحة الباب و دخلت مباشرة إلى مكتبة السيد عبد القدس قالت فاطمة :

– الأمر هكذا منذ يومين .

دخلت خلف صفيحة إلى المكتبة ، وجدتها تجلس على كرسي السيد عبد القدس مغمضة عينيها كما فعل ذالك اليوم ، و من دون أن تفتحهما قالت :

– ادخل يا شعيب .

جلست على الكرسي البلاستيكي و قلت :

– يجب أن لا تضلي وحدك ، يجب أن تقبلني عرض خالك .

– أسائل .

أدركت على الفور أنها جادة و أنها لا ترغب في إضاعة الوقت .

– أسائل عن ماذا ؟

– ألا تريد أجوبة ؟

– ليس الآن الوقت غير مناسب .

– هل زارك مبعوث الأسياد ؟

لم أتفاجأ من سؤالها فقد كنت على يقين بأنها تعلم الكثير .

– نعم .

– و هل التقيت بأحد ما من الطرف الآخر ؟

– أي طرف ؟

– ماذا قال لك مبعوث الأسياد ؟

– أخبرني أن الشيء الذي أعطانيه والدك يخصهم .

– هذا صحيح .

– و طلبوا مني أن أعمل به في صفتهم .

– الأمر عائد لك و أنت الذي تختار مع أي طرف تكون و في كلتا الحالتين سيكون لك أولياء و أعداء .

– و قالوا أنه يمكنني أن أسلمه برضائي إلى الشخص الذي يسعى إليه .

– إذا ثم غصبه منك أو أكرهت على تسليميه ، أو ثم قتلك عن عمد ليتم توريثه لغيرك فإنه لن يستفيد منه مالكه الجديد لأن مفعوله سيبطل .

– و قالوا أنه يمكنني أن أحافظ به من دون أن أفتحه .

- إذا عطلته لمدة خمسة وعشرين سنة سيعود إلى الأسياد مباشرة و في هذه الحالة ستقتل في آخر يوم من تلك الخمسة وعشرين سنة .

- ما هو ذلك الشيء ؟

- افتحه لتعرف ؟

- لقد قال لي السيد عبد القدوس أن لا أفتحه إلا إذا كنت مستعداً للموت .

- إذا قال ذلك فالأمر كما قال ؟

- وقال أنه يمكنني أن أحرقه إذا لم أستطع فتحه أو خفت أن يضيع مني .

- والذي لا يريد لذلك الشيء أن يعود للأسياد .

- من هم الأسياد ؟

- أي أسياد تقصد ؟

- الذين في نيويورك .

- إنها دائرة صغيرة تابعة للأسياد روما .

- و من هم أسياد روما ؟

- طبارس ابن أسطبيان ابن الأخرم ابن قسطنطين ابن هرقل و حاشيته .

- لا استطيع أن أصدق ما تقولين .

- و أنا أيضاً لا أصدقه ، ولكن هكذا قيل لي لما سألت .

- و إذا طلبت منك النصيحة فيماذا تشيرين عليّ ؟

فتحت عينيها و قالت :

- إذا كنت تتوبي إنجاب أطفال أنصحك أن لا تفتح ذلك الشيء .

- هل تعرفين السبب الذي دفع بالسيد عبد القدوس إلى إعطائي ذلك الشيء .

لم تجني و قامت من على مقعدها و أشارت لي بأن لا أتحرك من مكاني و بعد دقيقتين عادت تحمل صندوقاً صغيراً أعطيه لي و قالت :

- هذه حلية والتي أعطتها لي قبل موتها و أريد منك أن تسلمها إلى خديجة إذا ما مات .

ركزت بصري في عينيها لأعرف مدى جديتها فوجئتها هادئة تتسم ملامحها بالارتياح قلت :

- من خديجة؟

- عذني أن تسلمها لها .

- أعدك ، و لكن من خديجة؟

- خديجة أمرار .

أقصدُ القلب

قبل أن تسافر فاطمة إلى فرنسا برفقة زوجها هيثم عيطون بشهر واحد قالت لصفية :

– آسفة يا صديقتي لأنني سأرحل عنك .

أجابتها صفية حينها :

– بل أنا التي سأرحل عنك يا صديقتي .

و كان الأمر كما قالت صفية ، فقد كان عادل المرواني غالباً ما يكون غائباً عن حي كولومبيا ، و باستثناء منير الذي لم يكن يُخفي عليه شيئاً ، لم يكن رفقائه يعلمون أين يذهب ، و عند مغرب ذالك اليوم كان واقفاً برفقة منير و شخص آخر حين قال فجأة : صفية .

قال منير :

– ما الأمر ؟

– صفية تنادي علىّ يجب أن أذهب .

طلب منه منير مراقبته ولكنه رفض بشدة و سلك زقاقاً جانبياً لا يسلكه عادة ، و في نفس الوقت كان إبراهيم البركي في جلسة حشيش مع بعض رفقائه حين قال : سأفعل . سأله أصدقائه مع من تتحدث؟ لم يحبهم و نهض و هو يردد : يجب أن يموت سائق حلاً ، و سلك نفس الزقاق ليلتقي بعادل في منتصفها، كان شارد الذهن و لم ينتبه إلى إبراهيم حين اقترب منه و ظنه زبون يرغب في شراء الحشيش ، قال له من دون أن يُمْعِن النظر فيه : (منير هناك أذهب إليه) . لم يجهه و استل سكيناً و طعنة طعنة مميتة اخترقت كبده .

عاد إبراهيم إلى أصدقائه يحمل السكين به أثار الدم و يصبح لقد قتلت شخصاً ما ، لقد طعنته ذهبوا جميعاً يجررون إلى المكان الذي أشار إليه ، وجدوا دماء كثيرة و لم يجدوا أيّ قتيل ، و في نفس الوقت كان حمزة المرواني يجلس في مقهى للشيشة بحي التشارك برفقة أحد أصدقائه و اثنين من الموهسات حين قال : (صفية تنادي علىّ) ، ضحك جلسائه و قالت مومس : (اسمي باتول و ليس صفية) ، لم يُعرِّضَ حكمتهم أي اهتمام ، و قفز من على كرسيه و هو يقول : (عادل أيضاً ينادي علىّ) ثم خرج إلى الشارع و أوقف سيارة أجرة عنوة و صعد على متنهما على الرغم من اعتراضات السائق و الزبون الم Rafiq له .

أما عادل فقد وضع يده على جرحه و عاد ليموت بين يدي منير ، و كان آخر كلامه هو : (أخبرها بأن لا تقتل مصطفى) . خرج كل ساكنة حي كولومبيا بدون استثناء يعاينون الحدث ، و جاء أناس من الأحياء المجاورة ، و طار خبر مقتل عادل القط في جميع أنحاء الدار البيضاء ، كانت مصدوماً من هول الفاجعة حين أمسكت فاطمة بذراعي و قالت :

- يجب أن نذهب صفيه تحتاجنا بجانبها .

أسرعنا الخطى إلى بيت المرواني ، وجدنا حمزة يبحث في جيوبه عن مفاتيحه و يبكي بصوت عال كطفل صغير ، لما سمعت فاطمة بكائه أجهشت بالبكاء هي الأخرى ، صرخت في وجهه :

- أين صفيه لماذا لا نفتح الباب ؟

قال بصوت غالب عليه النحيب :

- إنّها في الداخل ، أطئها ماتت فقد سمعت ندائها قبل ندائها .

في داخل البيت وجدنا صفيه في سريرها مضطجعة على جنبها الأيمن واضعة يدها تحت خدتها ، كانت تبدُّ كأنها نائمة لولا سخنة الموت التي لا تخطئها عين .

تحدث سكان حي كولومبيا على أن صفيه بلغها خبر مقتل أخيها فماتت نتيجة سكتة قلبية ، و هذا أيضا ما نشرته الجرائد في صفحات الحوادث ، مع الاكتفاء بذكر الحروف الأولى لضحيتين و الجاني .

اختفى معظم شباب آل بركي من الحي و كذلك منير و أحمد و حمزة ، فقد سعت الشرطة جاهدة في القبض عليهم مخافة أن تقع أعمال انتقامية ، و الغريب في هذه الحادثة هو أن إبراهيم البركي الذي سلم نفسه لشرطة طوعية كان يبكي و يقول : (كيف يعقل أن أقتل عادل المسكين) .

ثم حفر قبرين متجاورين ، دفن في أحدهما جثمان صفيه و في الآخر عادل الذي تأخر دفنه يوما عن دفن صفيه بسبب التشريح الجنائي ، و في الوقت الذي كان جثمانه يوارى التراب ، ألقى مؤذن مسجد حي كولومبيا موعدة مؤثرة ، كان شاباً نحيف الجسم ، طويل القامة ، أبيض البشرة ، أمرد إلا من بعض شعرات أسفل الذقن ، و على الصدغين ، جاحظ العينين ، كان في حوالي الثامنة والعشرين من عمره . أبكت مواعظه جل الحاضرين ، و في تلك اللحظة بالضبط انتهت إلا أنني لا أذكر آخر مرة بكى فيها ، أز عجتني تلك الخاطرة و سعيت إلى طردها من رأسي ، فبدأت بتتبع وجوه الحاضرين ، وقع بصرى على عيني السيد خليفة أمزار و هما تحملقان بي ، تجاهلت و كأنني لم أنتبه إليه ، و أرجعت بصرى إلى السيد يوسف فدرى الذي شرع في ختم الموعدة بالدعاء .

بعد الانتهاء من الدفن طلب مني هشام أمزار أن أنتظر قليلاً إلى أن ينتهي والده من تلقي التعازي لأنه يرغب في الحديث معي ، وقفت في مكان قريب يستطيع خليفة أن يراني منه إذا ما انتهى ، لـما رأني يوسف فدرى منعزلاً اقترب مني و قال :

- ما لي أراك منعزلاً ، ألا تعلم أن الذئب يأكل من الغنم القاسية ؟

قلت :

- من الشاة و من الذئب ؟

- الشاة المؤمن و الذئب الشيطان . هل أنت شعيب مودود ؟

- أجل .

- لقد حدثني أخي عن تصديك لترهات ذالك الأستاذ المتسلط .
- متسلط ! صحيح ، هذا وصف يليق به .
- لماذا لا أراك يا سيد شعيب في المسجد ؟
- هذا لأنني لا أصلي .
- و لماذا لا تصلي ؟
- كان من الأفضل لو سألت منذ البداية (لماذا لا تصلي ؟).
- و ما أدراني لعلك تصلي في البيت .
- ألم تقل أن الذئب يأكل الشاة القاسية ، و ما دمت لا تراني في المسجد فأنا في بطن الذئب .
- ليس بعد يا سيد شعيب .
- لأن روحى لا تزال في جسدى ؟
- و أيهما يأكل الذئب الجسد أم الروح ؟
- الذئب لا يستطيع أن يسلط على الروح إلا من خلال الجسد .
- و أين العقل من هذه المعادلة يا سيد شعيب ؟
- العقل مع الجسد .
- كيف و هو شيء غير ملموس ؟
- الآلة التي تتنجه ملموسة ، حاله كحال السمع و البصر .
- أقصد الدماغ ؟
- أقصد القلب .
- عَدَّلْ قلنسوته بكلتا يديه ثم قال:
- إذا كنت تعلم كل هذه الأشياء و لا تصلي فانت على خطر عظيم بسبب انتفاء العذر بالجهل عنك .
- أنا أتمنى أن أصلي ، و سأفعل في أقرب وقت .
- تكلم خليفة أمزار من خلفي :
- إياك أن تفعل يا سيد شعيب .

نظرنا إليه معا ، قال يوسف :

– خليفة أمزار القاعدي المعروف ، الانسحاب يكون محمودا في مثل هذه المواقف ، لأن الملائكة تغادر إذا حضرت الشياطين .

قال خليفة :

– الصواب هو أن الجهل ينقشع إذا ما حضر العلم .

استنتجت بأن هناك لقاءات سابقة بين هاذين الشخصين ، وأنه يستحيل أن يجتمعوا في مكان واحد ، ويستحيل أيضا أن يكون لهما أصدقاء مشتركين ، قلت :

– حينما نقوم بتردد المتداول على لسان الدهماء دون تفكير نقع في شرك الشيطان شيئاً أم شيئاً .

قال يوسف :

– ماذا تقصد ؟

قلت :

– يا سيد يوسف يستحيل أن تطرد الشياطين الملائكة و على العكس من ذلك فأينما حللت الملائكة فررت الشياطين .

ضحك خليفة وقال :

– صحيح ، فهو لاء المترددين يشبهون الشياطين .

هم يوسف بالكلام فسبقه و قلت :

– يا سيد خليفة إن أقرب الناس شبهها بالشياطين هم الذين لا يؤمنون بوجودهم .

احمر وجه خليفة ، و قال يوسف :

– أفهم من كلامك أنك تريد أن تقف في منتصف الطريق بيني وبين خليفة .

قال خليفة :

– هذا إذا كنا على نفس الطريق .

قلت :

– يا يوسف . هل تستطيع أن تنفي عنك مطلق الإيمان ؟

– لا .

– و هل تستطيع أن تنفي عنك الإيمان المطلق ؟

- أنيه عنك قطعا و من دون تردد .

- هل رأيت ؟ أنا بالفعل في وسط الطريق .

- هذه طريقة جيدة في الاستدلال . ولكن احضر من الجلوس بين الشمس والظل فتاك هي جلسة الشيطان . و حاول أن نلتقي مرة أخرى .

بعد انصراف يوسف قال خليفة :

- أعجبتني معرفتك بمحفوظات الكتب الصفراء .

قلت :

- لا تخاطبني و كأني جزء منك ، فأنا أنتمي للجميع ، و لا فرق عندي بين الكتب الصفراء و الكتب الحمراء .

كل ذي عقل ضعيف هو ضحية لنا

ما تُبديه ملامح خليفة أمراء من دماثة خلق و طيبة نفس ليست إلا مظاهر خداعة ثم اكتسابها عبر سنوات طويلة من العمل في المجال السياسي ، وإذا كان النفاق هو إبداء شيء و إخفاء شيء ينافقه ، فيمكنا أن نطلق على خليفة منافق ممتاز ، و اصطناعه للتواضع و دماثة الخلق ما هو إلا قناع يضعه على نفس حاقدة متکبرة ، تكره كل الناس و يكرهها أقرب الناس إليها و هذا ما أكدته لي ابنته سناء . طلب مني في ذلك اليوم أن أزوره في مكتبه و أعطاني العنوان ، وعدته بأن أفعل بعد عودتي من القرية ، وقد زرتها في اليوم التالي لعودتي وفاء بالوعد .

أما في القرية فقد تصادف وجودي بقدوم شخص يمارس الاحتيال بطريقة يسميها المغاربة السماوي و هذا نوع من الاحتيال يمكن اعتباره سحرا بلا معاونة مباشرة من الشياطين ، وإنما هو سحر بيان ، و الذين يمارسون هذا النوع من الاحتيال يملكون موهبة نادرة في الإقناع و جرأة لا مثيل لها ، و أغلب ضحايا السماوي هن النساء .

جعل حسن الجوش قريتنا هدفا و اختار يوم السبت صباحا ، و ذلك هو الوقت الذي يكون فيه معظم الرجال في السوق الأسبوعية ، وجد زوجة عمي العربي تكنس أمام بيتها بمفردها فانتهز الفرصة و شرع في البهلهلة :

– سيدتي المحزونة سيدتي المهمومة ، أنت تعانين ، تقاسين ، أنت مريضة ، مسحورة ، محسودة و هؤلاء الذين تعانين من أجلهم لا يهتمون بك لا يسمعون لك ، و لكن أبشرني فقد أرسلني أولياء الله الصالحين لأرفع عنك العنة ، وإياك أن تجذبي أو تهربطي أو لكن سلمي و استسلمي و دعي الأمر للأولياء ، يرفعوا عنك البلاء ، و ما كادته لك تلك الحاقدة الحرباء ، لا نريد بخورا ولا قرابين ولا دراهم ، فقط كوب ماء .

دخلت زوجة عمي المسكينة إلى بيتها و أحضرت له كوب ماء ، نفث فيه و تمتم بكلمات نصفها غير مفهوم ثم قال لها :

– قولي فالأولياء يسمعونك ، ما هي حاجتك نقضيها لك اليوم ؟

قالت :

– يا بهلول ، ابني عبد الغني اقترب من الأربعين و لا يزال يرفض الزواج و يتهرب كلما فاتحته في الموضوع ، وقد عرضت عليه الزواج من ابنة أخي فرفضها رغم جمالها و حسن خلقها .

– هيئات هيئات ، فتلك الأفعى الرقطاء أقسمت بأن لا يتزوج إلا بإحدى بناتها .

– هل تقصد محجبة ؟

– و من غيرها ؟

- ما الحل يا سيد ؟

- خذى هذا الكوب و أفرغيه في سطل ماء و رشي به جميع جدران الدار الخارجية لتحصين البيت و الأسرة ، ولكن قبل التخلية يجب التخلية ، أخرجني من بيتك تابعة سحرها .

- كيف أفعل يا بهلو؟

أدرك حسن الجوش أنه تمكّن منها فانتقل إلى المرحلة التالية و هي ابتزازها ما دامت في حالة التصديق الجازم فقال :

لن تستطعي بمفردك ، و ما عليك إلا أن تحضري هدية للأولياء ، و هم سيقومون بالأمر نيابة عنك . و كلما عظمت الهدية كلما كملت التخلية ، و كلما تأخرت أكثر كلما نقص مفعول التخلية .

دخلت المسكينة تهروء و أحضرت له ثلاثة آلاف درهم و جلباب يعود لعمي ثمنه ألف درهم ، أخذ حسن الغنية و أعطاها الكوب و صاح فيها :

- باشري و أبشرى .

و في الوقت الذي كانت ترش فيه جدران المنزل ، أدركت أنها تعرضت لعملية احتيال بالسماوي الذي طالما سمعت به ، فأسرعت و أخبرت جارة لها بالأمر ، كان لتلك الجارة ابنا عمره تسعة سنوات أرسلته خلف المحتال . و في نفس الوقت انتبه مجموعة من الشباب إلى الشاب الغريب الذي يتوجول في القرية بطريقة مريبة ، فاستوقفوه قبل أن يغادر القرية و سأله عن وجهته ، أخبرهم أنه حافظ للقرآن و أنه يبحث عن مسجد ليشتغل فيه كإمام راتب ، اعتذروا منه و أفسحوا له الطريق ، و قبل أن يغادرهم صاح الفتى من بعيد :

- أمسكوا به إنه البهلو الذي احتال على زوجة السيد العربي .

انقضّ عليه الشباب و أوسعوه ضربا ثم قيده . أخبرتني حفيظة بالحادث و قالت لي أنهم يحتظون بالمحтал في الساحة مقابلة للمسجد و أنهم أرسلوا شخصا لإبلاغ الدرك ، اتجهت إلى وسط القرية حيث يوجد المسجد ، وجدت حلقة لا يأس بها من الناس معظمهم نساء حيث أن جل الرجال كانوا لا يزالون في السوق . لما وقفت في الحلقـة رأيت الجوش في قيده جاثيا على ركبتيه يصطنع الجنون ، و به مجموعة من الكدمات ، كان في العقد الثالث من عمره ، قامته قصيرة و رأسه ضخم ، أبيض البشرة كلما تكلم تطأير اللعاب من فمه ، نظر إلى فورا وصولي و أرسل لي رسالة كتبها بملامحه مضمونها التوسل . قلت بصوت مرتفع :

- حينما يحضر الدرك سيعتقلونه و يعتقلون من تسبب له بهذه الكدمات .

قال أحد الشباب :

- إنه لص و قد نال ما يستحقه .

قلت :

- هذا صحيح . إنّه لص ، ولكننا لسنا السلطة حتى تلحق به العقاب ، و أظن أن الدرك لن يتغاضوا عل هذا الأمر ، و لو فعلوا لسعى كل واحد منا إلى إلحاقي العقاب بخصوصه مستغليا عن القانون .

قامت قريبات الشباب الذين أمسكوا بالجوش بحثّهم على المغادرة قبل مجيء الدرك ، و من تبقى من الحاضرين ابتعدوا عن الجوش قدر مستطاعهم . اقتربت منه و انحنىت إلى أن صار وجهي في مستوى رأسه ، و قلت بصوت مهمور :

- شعيب مودود .

- حسن الجوش . أشكرك .

- هل تستطيع يا سيد حسن تجاوز هذا المأزق مستعينا بالسماوي ؟

- السماوي بلا فائدة إذا كان المستهدف أكثر من واحد أو أكثر من ثلاثة بالنسبة لنساء .

- وإذا كان هذا الواحد يعلم أساليبكم ؟

- كل ذي عقل ضعيف هو ضحية لنا ، سواء علم أساليبنا أو جهلها .

- و هل أستطيع أنا تخليصك ؟

- بالطبع تستطيع .

- كيف ؟

- النساء .

- و هل سأنجح ؟

- جرّب .

وقفت و نظرت صوب الجهة التي كانت بها معظم النسوة و قلت :

- إنّ هذا المجنون يقول كلاما كله حكمة .

شرع الجوش يتمتم بصوت منخفض و اقتربت بعض النسوة منه ، قلت :

- اذروا إن يدُغُ عليكم فدعوات أمثاله تكون مجابة .

تحلقت عليه جميع النساء و قالت واحدة منهن :

- يا بهلوان ادع لبنيتي بالزواج .

قال :

- ستتزوج إذا نزعتي عنها تلك التميمة التي ترتديها بقصد رد العين فهي التي ترد عيون الخطاب عنها .

احمر وجه المرأة و تراجعت للوراء ، و قالت امرأة أخرى :

- يا بهلوان ادع لولدي أن يتحقق مبتغاه .

قال :

- أبشرني سيركب ابنك الطائرة عما قريب .

قالت المرأة لولدها الذي كان يسمع :

- أسمعت يا عاق؟ فك وثاق هذا البهلوان ، ستسافر بالطائرة و لن تركب قوارب الموت ، لقد كان كلام والدك صائبًا عندما أمرك بالتمهل .

ضحك بصوت عال و تسائلت في نفسى إذا ما كانت في مجتمعنا فتاة أطل عليها شبح العنوسه و لا ترتدي تميمة ، و هل يوجد شاب قروي لا يتمنى ركوب الطائرة سواء أكان يفكر في الهجرة أو لا . و هكذا استمرت النساء في طلب بركات حسن الجوش .

اعترض بضعة أشخاص على ذلك و ثاقه ، و كلمة الفصل كانت للغالبية ، و انتصرت الديمقراطيه على الحزم ، طلبت مني إحدى النساء بانفعال أن أبعده قبل مجيء الدرع . و طبعا لم يصل الدرع لأنهم طلبوا من المبلغ أن يُحضر المحتال إلى المخفر بنفسه . غادر حسن الجوش قريتنا خالي الوفاض ، و أكد على بضرورة زيارته إذا ما حللت بمدينه آسفي .

في مساء ذلك اليوم زارنا عمى العربي و ابنه عبد الغنى ، و وجّهها إلى اللوم لأنني ساعدت المحتال على الإفلات . أخبرتهما أنني كنت تحت تأثير السماوي و أن المحتال أخذ مني مبلغ ثلاثة درهم قبل انصرافه ضحك الجميع و تحول اللوم إلى تعاطف ، أمّا حفيظة فكانت تعلم أنني لم أكن أحمل معى أيّ نقود حين خرجت و هذا ما جعلها تقول مباشرة بعدما صرنا لوحدينا :

- لماذا كذبتي يا شعيب؟

و لأنني أعرف جديتها و كرهها للمرأوغة التزمنت الصدق معها و قلت :

- أنت تعلمين أن عمى و ابنه علما أنني وقفت مع من احتال على زوجة عمى في غيابهم بدلا من أقف معها ، و هذا قرار صائب بالنسبة لي ، أما بالنسبة إليهما فإنه أشد مضاضة من السيف لأنه ظلم من قريب ، فكان أمامي خيارين . إما أن أبين لهما أن ما ناله المحتال من لكم و ركل كان كاف كعقوبة له ، و أن زوجة عمى يلزمهما عقاب مثله حتى لا تُذعن في المستقبل لكلمة استسلامي ، و إما أن أدعى أنني أنا أيضا كنت ضحية للاحتيال حتى لا يساء فهمي و تقع القطيعة .

ضحك و ضربت ذراعي ثم قالت :

- أنت أعلم مني بهذه الأمور ، و لكن لا تنسى أن الصيف على الأبواب .

- تلمحين إلى العرس .

- بل أصرح .

- لا تقلقي ، لن أخلف وعدي .

ابتسمت و قامت تكحل عينها الوحيدة .

سيد الصناديق

يوجد مقر معهد الطليعة للدراسات الجيوسياسية لدول شمال إفريقيا في الطابق الثالث من مبنى يقع في شارع بورغون ، كانت لهجة خليفة أمراء قريبة من لهجة فضيل العيادي ، تفوح منها رائحة الاستعلاء مع اختلاف بسيط في طريقة صياغة الكلام . طلب لي فنجان قهوة ، وتحدث طوبيلا عن يوسف فدري و التيار السلفي الداعوي خاصة ، وعن الإسلاميين عامة ، وزعم السيد خليفة أنه لو آلت له السلطة يوما فإنه سيسعى إلى استئصالهم بجميع انتماطهم ، و لما سأله عن سبب تطرفه أخبرني أن أمنيته هي إقامة نظام لا ديني و لا يمكن تحقيقها بوجود معاول الإسلاميين ، لم أشأ أن أعارضه أو أدخل معه في جدال بسبب أمنية حمقاء تشبه أمنية هتلر في استئصال اليهود فكانت النتيجة عكسية و جعل من اليهود أسياد العالم . ولم أشأ في نفس الوقت أن أدافع عن الإسلاميين كأشخاص ، و إن كنت متيقنا أنه لو أتيحت له الفرصة لاستبدل كلمة الإسلاميين بكلمة المسلمين .

ثم كشف عن سبب رغبته في لقائي و سألني إذا ما كان السيد عبد القدوس أعطاني شيئاً ما قبل وفاته
قلت :

– نعم .

عقد ما بين حاجبيه و تشكلت علامات الكآبة على وجهه . قال :

– ما هو ؟

– أسطوانة في ثوب قرمزي .

شخصت عيناه و ارتعشت شفتيه و قام من على كرسيه ثم جلس ثم قام ثم جلس ، ثم قال :

– أتعرف ما هو ؟

– أظنه شيء يخص الأسياد .

– أسياد روما ؟

أومأت برأسى إيجابا

– هل قابلت أحدا منهم ؟

– قابلت مبعوثاً من طرفهم .

سكت قليلاً ثم قال :

– هل الأسطوانة لا زالت عندك ؟

أومأت بالإيجاب .

- هل تريدها بيعها .

- لا .

- أنت لا تعرف أي شيء و لذاك يجب عليك بيعها و مغادرة المستنقع .

- أعرف أنني أحيل الكثير ، ولكنني أسعى إلى المعرفة ، ولن أبيعها لأنني أظن أنني سأقتل فور خروج الأسطوانة عن ملكيتي .

- هذا إن قمت بفتح ختمها و اطلعت على سرها .

- عن أي ختم تتحدث وقد كانت عند السيد عبد القدوس ولا بد أنه فتحها .

ابتسم بسخرية وقال :

- كلما انتقلت إلى سيد جديد كلما تشكل عليها ختم جديد .

- ستكون أول من أعرضها عليه إذا ما فكرت ببيعها ، وفي المقابل أريد منك بعض المعلومات .

أظهر لي الابتسامة الساخرة مرة أخرى ، ثم قال :

- وما هي هذه المعلومات ؟

- كل ما تعرفه عن صهرك السيد عبد القدوس .

سكت قليلا ثم نظر وقال :

- عبد القدوس المرهوني خط هلك ، وأنت فتى أحمق يجب أن لا تعيش ، كيف يمكن أن يحصل غر مثلك على كنز يسعى إليه صفوة الناس ؟

- أظنه تهدى .

- بل أمنية .

- لا بأس على إذا ، فجميع أمانياتك حمقاء يستحيل تحقيقها .

احمرت أوداجه و ضرب على سطح المكتب براحة يده اليمنى ، حافظت على هدوئي و لم أتحرك ، وقف و أعاد ضرب المكتب بقوة أكبر ثم شرع يتكلم بصوت مرتفع و كأنه يحاضر :

- عندما جاء بي والدي من تنغير إلى الدار البيضاء لم أكن أحسن الكلام باللغة العربية ، و ما كنت لأرضي أن أتعلمها ، ولكنها سمعت توجب علي تجربتها إذا ما أردت مواصلة تعليمي ، و في المرحلة الجامعية التحقت بالتيار القاعدي الماركسي و صرت من قادته و أنا في السنة الأولى ، أتعلم لماذا ؟

لم أجده .

- أتعلم لماذا ؟ أجب .

قلت :

– لا أعلم لماذا و أعتقد أنني أعرف كيف ، و يمكنك الاستمرار في المحاضرة فكلي أذان صاغية.

– لأنني مؤهل للقيادة و لن تثني عزمي الستين سنة التي طويتها ، و أتى لها ذلك و قد التقيت بسيد بلغ القيمة وهو في الثمانين من عمره ، و قد اجتمعنا به قبل ثلاثين سنة و كان عمره حينذاك ألف و ثلاثة و ثلائة و أربعة عشرة سنة بالضبط .

قاطعته و قلت بنبرة تشوبها السخرية :

– أيعقل هذا و السيد عبد القدوس مات عن الستين ؟

– عبد القدوس أحمق ، و أخي التي أهديتها له هي الفيروس الذي أفقده عقله ، و ما كان عليه أن يتزوجها

أحببت فورة غضبه و شعرت بأنني المسيطر قلت :

– هل اشتغلت قوادا في ما مضى ؟

– لا يمكنك أن تتعنت رجلا أفلع عن مخدر اسمه الدين و حذف من قاموسه كلمة حرام بالقواد ، ثم إنك لا تعلم شيء ، لقد كان عبد القدوس من سلالة أصيلة ، لقد كان من أنقى فروع الشجرة ، أجل لقد حصلت على الإرث . و لكن الدماء التي كانت تجري في عروقه أغلى و أثمن عند الأسياد من ذلك الشيء الذي صرت تملكه بغير وجه حق .

– هون عليك يا سيد خليفة فقد أهديه لك عما قريب .

أربكته كلماتي الأخيرة و أعادته إلى أعماق نفسه يجري معها حسابات برغمانية بعيدا عن الكبراء الأنوي ، و قال :

– هذا ما يجب عليك أن تفعله و هو ما توقعه منك السيد عبد القدوس و ستتعلم حينذاك مقدار كرمي .

– هل تعلم علما يسمى الجبـ ؟

– أظنك تصلح للحلـ السياسي .

– كيف ذلك ؟

– إذا فشـ التـرهـيبـ فـعليـكـ بالـترـغـيبـ .

– إذا لم تشاـ الحديثـ عنـ الجـبـ فلاـ تـفعـلـ .

– إذا كانـ هوـسـ أصحابـ الـخـيمـيـاءـ هوـ حـجـرـ الـفـلـاسـفـةـ فهوـسـ أصحابـ السـحـرـ هوـ الجـبـ .

– هلـ أـفـهـمـ أـنـهـ مجـردـ وـ هـمـ ؟

- بل حقيقة ، و لكنها متوازنة .

- و الذي يتحصل على هذا العلم ماذا بوسعي أن يفعل به ؟

- هل تريد أن أخبرك بحقائق عشتها كبرلماني سابق ؟

- يسعدني ذلك ؟

- في سباق الانتخابات تتقارع سيوف المال و الدعاية و النزاهة ، و أغلب المتنافسين يدعون لحملهم الجراء و يجعلون مع الدعاء سحرا ، أما الذي يجعل مع الدعاء جبنا فمن المؤكد أنه سيكون سيد الصناديق .

- كيف يحصل ذلك ؟

- لا أعلم ، و لكنها الحقيقة .

- لا أفهمك ، تتبني الإلحاد و تؤمن بالسحر حقيقة .

- أؤمن بالسحر كعلم و ليس كخرافة .

- و هل الذي بالاسطوانة له علاقة بالجبت ؟

- إذا كنت ترغب في تعلم الجبت فأعطيك الاسطوانة و أنا آخذك لمن يعلمك الجبت .

- إذا فالذي في الاسطوانة أعظم من الجبت .

- لا علم لي ، و لكن كنز العجوزين التوأم من دون شك أعظم من الجبت .

لم أعرف في ذلك الوقت من كان يقصد بالعجزين التوأم ، و فيما بعد كشف لي عبد المالك شرواط ذلك السر المقيت .

لما استنتجت أن خليفة أمرار يحاول أن يمرر لي معلومات مضللة قدر إمكانه ، استأننته في الانصراف ، و أخذ مني وعدا بتكرار الزيارة . خرجت من مكتبه و أنا مصمم على تنفيذ وصية صفية و إيصال تلك الحلي إلى خديجة أمزار في أسرع وقت ، ولكن اختفاء منير جعلني أؤجل التنفيذ بضعة أسابيع و في تلك الفترة اقتربت حكاية شماعة الموسم الدراسي من نهايتها ، و غادرت فاطمة إلى فرنسا ، وبدأ التحضير للعرس الذي وعدت به حفيظة ، و التزم عمي العربي بكل ما تعهد به ، و كذلك فعل محمد أشقر ، أما الحدث الأبرز في تلك الفترة فهو ما وقع لحمزة المرزوقي .

عقدت اجتماعات سرّية

أخبرني محمد أشقيير أن أحواله المادية تحسنت منذ أن زاره ذلك الشاب برفقة العامل ، واعترف لي بان منصبه الجديد أتاح له الحصول على نصيب من أموال الظل التي تخلفها العقود المبرمة ما بين الدولة و الشركات المحلية الخاصة بالمرافق العمومية . و عرض عليّ سلفة أبدأ بها مشروعًا خاصا ، أخبرته أني أنوي إنشاء مشروعٍ خاص بالدار البيضاء و أني سألجأ إليه إذا ما احتجت إلى التمويل .

في حي كولومبيا كان مجموعة من الشباب الصغار يبيعون الحشيش التي يوزعها عليهم حمزة المرwoاني مقابل نصيب من الأرباح يسأله لعب أقرانهم . كانت الساعة السابعة مساءا ، و كنت في طريقي إلى بيت عمتي ، عندما مررت بحمزة و شابين آخرين يجلسون على صناديق للمشروبات الغازية بالقرب من بقالة الصحراوي . نادى عليّ و أمر الشابين بأن يأخذوا صندوقا و يبتعدا قليلا ، جلس على الصندوق الشاغر ، كان حمزة مخمورا و بالكاد يستطيع الكلام ، أخرج من جيب بنطاله مفاتيح بيته و رماها أمام قدمي و أخبرني أن خليفة حاول أخذ بعض الأشياء بعد وفاة السيد عبد القدوس و لكنهم منعوه ، و طلب مني أن أتصرف في محتويات البيت بأسرع وقت لأنه ينوي حرقه ، أخذت المفاتيح و سأله عن مكان منير ، أخبرني أنه يتتردد على الحي بين الفينة والأخرى ، غير أنه نادرا ما يغادر بيت آل مرwoاني منذ وفاة عادل . و لما نهضت للإنصراف ، نادى على الشابين و قال لي :

- ليس البيت الذي في كولومبيا ، و إنما بيتنا القديم الذي بالوازيس.

بعد يومين قام باصطحاب خمسة من أصدقائه إلى شاطئ عين الذباب ، و أخذوا معهم كمية كبيرة من الطعام و الخمر ، شاركهم في تناول الطعام و امتنع عن احتساء الخمر ، و لأنهم يعلمون شدة إدمانه تعجبوا من تصرفه . أخبرهم أنه لا يريد أن يموت سكرانا ، حسبوها دعابة و ضحكوا .

غادر المصطافون المغاربة المكان لما أبصروا زجاجات الخمر ، لم يعرهم حمزة أي اهتمام و صاح على ثلاثة سائحات كنديات كن يجلسن غير بعيدات منهم ، و دعاهن إلى الالتحاق بهم ، وافقت اثنتان منهن فورا لما سمعتا لغته الفرنسية السليمة في حين تسمرت الثالثة و حذرت صاحبتيها بالإنجليزية ، خاطبها بلغة انجليزية و لكنة قريبة من الل肯ة البريطانية و قال لها أنهم جاءوا بهدف التسلية لا غير . التحقت بهم السائحات و كذلك شابان آخران من معارف أحد المرافقين لحمزة ، و شرع الجميع في تدخين الحشيش باستثناء حمزة و الفتاة ميكايلا التي اعترضت في بادي الأمر على الالتحاق بالمجموعة . كانت مبهورة من تبجيل المجموعة لحمزة و من سعة إطلاعه على الأدب الفرنسي ، و هي التي التقى بها بعد أسبوع من موتها .

لم يندهش أصحاب حمزة لأنهم كانوا يعلمون مسبقا إنقائه للغتين الفرنسية و الانجليزية . و بعد منتصف النهار بساعة قام و خلع ساعته و سوارا ذهبيا و خاتمين كان يتزين بهما و أعطاهم لأعز أصدقائه و قال في جو ساده الاستغراب :

- إذا كان أمامكم خيارين ، إما أن تموتوا غرقا و إما أن تفصل رؤوسكم عن أجسادكم ، فأيهما تختارون ؟

ساد الهرج بين الشباب السكاري ما بين متوجس من أفعال حمزة الخرقاء ، و ما بين مستظرف لخفة الدم التي تحلى بها حمزة في تلك الساعات و مابين محبب عن السؤال . قال واحد منهم :

– أمّا أنا فأفضل الغرق .

أخرج حمزة من جيده رزمة من الأوراق النقدية و أعطاها له ، شعرت السائحات بالفضول فسألته ، و أعاد عليهن السؤال بالفرنسية ، أربكهن الخوف و بدأت كل واحدة تتحقق في الأخرى محاولات استكشاف سبب هذا التساؤل . أما حمزة فقد خلع قميصه و بنطاله و توجه صوب المياه ، تبعته ميكایلا و أوقفته قبل أن يخوض في البحر و قالت :

– أَجَرْتُمْ أَنَّ قطع الرأس أرحم من الغرق .

نزع من على جيده قلادة كان يرتديها دوما ، و أمسك بيده اليسرى يدها اليمنى و وضع القلادة في راحة يدها بيده اليمنى ، ثم شبك أصابع يدها عليها و قال :

– شكرا .

قالت :

– أؤكد لك ذلك ، فإننا أدرس الطب .

خاض في الماء و الجميع ينظرون إلى أن اختفى عن الانظار ، أدرك أصدقائه أنه لم يكن يمزح . و بعد ستة و ثلاثين ساعة لفظ البحر جثته و كانت من دون رأس ، و لم يُعثر على رأسه إلى الآن و قد دفن من دونه .

في صباح ذالك اليوم الذي غرق فيه حمزة زرث السيد عمر بوفلاح و طلبت منه أن يدلني على عنوان آل مرواني القديم . الغى جميع مواعيده و أصر على اصطحابي . كانت فيلا مهجورة في حي الوازيس بها حوض سباحة و حديقة صغيرة ألتفرهما الزمن ، أوقفنا السيارة أمام مدخل الفيلا الخاص بالسيارات ، و شرعنا في محاولة فتح الباب الصغير الملائق له ، أبصرنا حارس المنشقة و لكنه لم يجرأ على التقدم نحونا لما عاين لوحة السيارة الحكومية ، استطعنا دفع الباب الصدأ المنزوع القفل بصعوبة بالغة ، في الداخل لم نجد في الطابق السفلي غير قنينات بلاستيكية و علب السردين و اليوغورت الفارغة ، و كذلك قطع الزجاج المحطم ، شرعنا في تسلق الدرج بحذر شديد و لما وصلنا الطابق العلوي سمعنا صوت منير ينادي عليّ :

– هنا يا شعيب .

فقد أبصرنا من النافذة في الوقت الذي كنا نحاول فيه فتح الباب ، كان أشبه بهيكل عظمي و ملابسه رثة متسخة ، كان يجلس على لبنة إسمنتية و بالقرب منه سكينا من الحجم الكبير و قنينة كحول ، وجدنا برفقته شابان آخران . أمرهما بالنزول إلى الطابق السفلي ، شعرت بالأسى اتجاهه ، كنت أعلم أنه حزين على فقدان عادل و صفيه و لكنني لم أتوقع أن يبلغ مدى حزنه إلى هذا الحد قلت :

– هل تحتاج إلى بعض المال ؟

- أشكرك ، فكلما احتجت إلى المال أخرج للحصول عليه .
و أشار إلى السكين .

- اعتراض المارة و سرقة أموالهم ليس بالأمر الجيد .
أوما برأسه و كأنه يؤيّدني و قال :

- أظن أنك تريد معرفة عنوان سناء .

- أجل و لهذا أنا هنا .

- لا تحاول ، فلن أخبرك .

- لقد وعدت صفيّة .

اغرورقت عيناه بالدموع لما سمع اسم صفيّة ، و بعد شرود دام لحوالي ثلثين ثانية قال :
- يمكنك أن تلتقي بسناء في العيادة ، أما عنوان سكنها فلن أخبرك به .
- لا بأس ، المهم هو أن ألتقي بها .

أعطاني عنوان العيادة و قال :

- لقد زرتها في اليوم التالي لموت عادل و أبلغتها أن آخر شيء قاله قبل أن يلفظ أنفاسه أن أخبرها
بأن لا تقتل مصطفى .

نظرت صوب عمر ، ابتسم و رفع حاجبيه للأعلى ، تابع منير :
- غير أنها لا تزال مصممة على قتلها ، فأرجوك أن تحرس على أن ينفذ طلب عادل الأخير .
- سأحاول .

- أهذا كل ما ترغب في معرفته ؟

- في الوقت الراهن نعم .

- لقد مات والدي في السجن .

- آجرك الله . هذا خبر آخر محزن .

- لن أستطيع مقابلة عمي عبد المالك .

- و لكن هناك وصية تركها والدك .

- أرجوك أن تهتم بأمر تلك الوصية .

- و لماذا أنا ألا يوجد شخص آخر من أقربائك ؟

- لا أحد أثق به غيرك و لا أحد منهم يعرف مكاني حاليا .

- و هل سيرضى عملك باطلاعي على الوصية ؟

- فقط قل له أبو الفرون .

لما خرجن سألني السيد بوفلاح :

- هل هذا الشاب هو ابن الحسين شرواط ؟

- هل تعرفه ؟

سكت إلى أن ركبنا السيارة ثم قال :

- لقد كان الحسين شرواط يشتغل عند السيد عبد المجيد المرواني والد عبد القدوس ، و لما مات هو زوجته السيدة طامو في رياضهم بمدينة فاس انتقل الحسين إلى خدمة السيد عبد القدوس.

- و هل مات والدي السيد عبد القدوس في وقتين متقاربين ؟

- بل في ساعة واحدة ، فقد ماتا نتيجة اختناق سببه لهما فحم التدفئة .

- و كيف انتهى الأمر بالحسين في السجن ؟

- لما تزوج السيد عبد القدوس بالسيدة خديجة أمزار ، وقعت خصومات بين المرواني و أفراد من بني عمومته و هم السيد بدر الدين الساحي و السيد أشرف الميلودي ، و تورط فرعون آخرين مصربيين في الخصومة و هما السيد بهاء المناوي و السيد عهد الفتхи و كانوا جميعهم يرغبون في أن يتزوج السيد عبد القدوس بالفتاة التي يختارها من داخل العائلة .

- و ما الذي حصل بعد ذلك ؟

- عُقدت اجتماعات سرية بين عدة فروع من العائلة لحل النزاع و رفضت الفروع الأصيلة التي بلدن التدخل و كذلك تلك التي في أصفهان و موسكو و برلين .

- و كيف انتهى الأمر ؟

- تدخل الأسياد و أرسلوا إشارة إلى المتخصصين .

- و ماذا كانت تلك الإشارة ؟

- لقد فصل رأس أشرف الميلودي عن جسده ، و قُبض على سائقه الخاص و اعترف أنه هو الفاعل ، و فهمت الرسالة . و انتقل السيد عبد القدوس و السيدة خديجة إلى الفيلا التي كنا فيها قبل قليل .

- أستنتج أن الأسياد أيدوا السيد عبد القدوس .

- ليس تطبيقاً للعدل وإنما لأن دمائه أنقى من دماء خصومه .

- و لماذا قتل الأسياد السيدة خديجة ؟

- لا أعرف لماذا ولا كيف ، وكل ما أعرفه هو أن السيد الحسين شرواط خادم العائلة اعترف بقتله لها وأن هدفه كان السرقة و ذلك كله حتى لا يُجرّ أفراد الأسرة إلى التحقيق و ربما تعلم الصحافة المستقلة بالأمر و تحدث ضجة . و هذا متوقع من كل الذين يخدمون تلك العائلات ، وأظنك ستحصل على معلومات أكثر من وصية الحسين .

- ربما .

- لا زلت أنتظر منك يا سيد شعيب ما يفيضني في ما أبحث عنه .

- سوف أزورك في مكتبك يوم الأربعاء صباحاً و نتحدث في الأمر .

لا يمكن رؤية ما خلفه

في عصر ذلك اليوم أخبرتني عمتي أن سكان الحي يتحدثون عن خبر موت حمزة ، و كيف أنه ذهب برفقة أشخاص آخرين إلى شاطئ عين الزياب و أفرط في شرب الكحول ثم قام ليسبح فغرق و البحث عن جثته لا يزال متواصل ، هذا ما كان يتداوله الناس ، لم أتفاجأ فقد كنت أتوقع ما هو أسوأ من الغرق و مع ذلك فقد شعرت بالأسى على آل مرواني .

اتجهت إلى منزل المرواني و استعملت المفاتيح التي أعطانيها حمزة بدا البيت و كأنه مهجور منذ مئات السنين ، تجولت في المطبخ و في المكتبة و في الغرف ، كان كل شيء لا يزال في مكانه ، و قفت أمام السرير الذي توفيت عليه صفية فشعرت بقشعريرة تسري في سائر جسدي ، خرجت و أعدت إغلاق الباب و القشعريرة لم تفارقني إلى أن احتللت بالناس .

جعلني موت حمزة أوجل زيارة سناء أمزار ، فبعد يوم من تأكيد خبر وفاته ، بحثت عن يوسف فدري و شرحت له كيف أن حمزة المرواني أوصاني بالتصريف بمحنتيات البيت و أن أحمد المرواني هاجر إلى إسبانيا كما يقال ، و بعد جدل طويل قمنا برفقة بضعة شباب من سكان الحي بتوزيع الأثاث و أدوات المطبخ على أربعة من بيوتات الحي الأكثر فقرا ، و كذلك قمنا بنقل الكتب التي انتقاها يوسف إلى جمعية دار القرآن الواقعة بدرب السلطان ، أما باقي الكتب و كانت في معظمها كتب فلسفة و تصوف وأدب ، فقد أكد يوسف على ضرورة حرقها ، قلت له حينذاك : لنفترض جدلا أنها شرّ محض فلماذا لا نتعامل معها كما قال الشاعر :

عرفت الشّرّ لا للشّرّ لكن لتوقيه

و من لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

و هكذا استطعت إقناعه بالعدول عن رأيه و لم يكن الوقت مناسبا لجدل بيزنطي بنكهة سلفية ، بعد ذلك وضعت الكتب التي انتقتها فوق سرير صفية الذي قررت أن أحافظ به هو الكرسي الذي كان يجلس عليه السيد عبد القدوس ، و أغلقت الباب .

استطاع خليفة أمزار من خلال نفوذه التسرع بدفع حمزة حتى من دون رأس ، و التقينا مجددا أنا و هو و يوسف فدري ، سألهني يوسف :

– لماذا يصلني خليفة معنا صلاة الجنازة مع أنه ملد ؟

قلت :

– لعله يعتبر الأمر ضرورة اجتماعية .

لم يعجبه جوابي و قال :

- ليس الأمر كما قلت ، و لكنّها مشية الغراب يا صديقي .

بعدها طلب مني السيد خليفة مرافقته ، أوضحت له أنني ملتزم بموعد ، و وعدته بزيارة قريبة . انتهت مراسم الدفن في الساعة التاسعة و النصف صباحا و عند الساعة الحادية عشرة و عشرة دقائق كنت في مكتب السيد عمر بوفلاح ، و جدته ينتظرني برفقة صديق له اسمه ياسين العيدوس ، و أخبرني أنه عزمه ذلك اليوم ليعرفني عليه ، و بعد نصف ساعة انتقلنا إلى مقهى محاور حيث تناولنا الغذاء على حساب السيد عمر ، كانت هناك إعاقة ظاهرة على يد ياسين اليسري ، لم يكن يستطيع التحكم جيدا في الأصابع و الكوع ، ربما كان في ذلك الوقت في الرابعة و الخامسة من عمره ، كان بيدينا و أحلف القدمين و يملك نظرة قاسية و وجهها مخيفا ، طلب منه السيد بوفلاح أن يحكى لنا الأحداث التي عاشها في نيويورك ، نظر بارتياح إلى ثم قال :

- هل تعني ما تقول يا سيد عمر ؟

- لقد أخبرتك أنه من أصدقاء السيد عبد القدس .

أحنى ياسين رأسه بالقرب من الطاولة و شرع يحكى كيف وصل إلى إسبانيا و هو في السادسة عشر من عمره و كيف تمكن من الالتحاق بعصابات المخدرات بمدينة مالقا ، ثم كيف تورط في تصفيه حسابات مع أفراد من الخيتانوس عندما كان في الثانية و الثلاثين من عمره ، ثم تمكنه من قتل ثلاثة منهم في ملهي ليلي و كذلك حارس أمن حاول التدخل فأصابته رصاصة عن طريق الخطأ ، و كيف تمكنت الأنتربيول من القبض عليه في بلجيكا .

و أخبرنا أنه كان يتوقع أن يتم ترحيله إلى إسبانيا ليعرض على القضاء هناك ، و لكن ما حصل هو أنه ظل محتجزا في بلجيكا لمدة خمسة و تسعين يوما من دون السماح له بالاتصال بأي أحد ، إلى أن زاره في السجن شخصان يرتديان ملابس مدنية ، و وضعوا أمامه عقدا ، عرضوا عليه إما أن يرحل إلى إسبانيا ، و إما أن يوقع على العقد . كان مضمون العقد هو أن يقوم بقتل سبعة أشخاص يحصل مقابل كل عملية قتل على مبلغ سبعة آلاف دولار و يحصل على حرفيته بانتهاء مهمته ، و لم يحوي العقد أي تفاصيل أخرى و لما طلب قلما من أجل التوقيع ، ضحكا و أخبراه أنه يكفي أن يبصق على العقد و لما هم بالبصاق سحب أحدهما العقد من أمامه و قال :

- لا تكن سخيفا ياهذا ، سنوقع بدلا عنك . و ما عليك إلى أن تستعد لأننا سنرحل بعد نصف ساعة .

في نيويورك علم التفاصيل المخيفة التي لم يتحدث عنها العقد ، لقد كانت نزالات حتى الموت ، كان ينقل معصوب العينين إلى الحلبة التي كانت عبارة عن غرفة مربعة مساحتها سبعة أمتار ، أرضيتها من السيراميك الأبيض و جرانها من الزجاج السميك الذي يستحيل كسره و لا يمكن رؤية ما خلفه ، ويمكن سماع الأصوات فقط ، قال كنا نحن المتبارزون ثُرى ولا ثُرى ، كانت هناك قاعدة واحدة تنتلي عند كل نزال ثم يتلوها التصفيق ، إذا لم يقتل أحد في النزال فسوف يتم تقييد المتبارزين و إدخالهما مع خصمين آخرين .

لقد علم ياسين أنه إذا أراد الحياة فلا بد له من قتل سبعة أشخاص ، و لأنه كان يعلم أن خصومه لا بد أنه ثم انتقامهم بنفس الطريقة التي أصطيده بها فقد شعر بصعوبة الأمر ، و هذا ما حصل بالضبط ففي نزاله الأول كان خصمه يخوض النزال الأول و في نزاله الثاني كان خصمه يخوض نزاله الثاني و

في الثالث كان خصمه أيضاً قد قتل شخصين و يسعى إلى قتل الثالث ، و هكذا فكلما اقترب من النجاة كلما صعبت المهمة ، و في الأخير فلن ينجو إلا واحد من أصل مائة و ثمانية و عشرين مجرماً ثم التقاطهم من جميع سجون العالم .

قبل النزال كانت تُنزَع عنهم جميع ثيابهم ثم يقفون عراة وسط القفص الزجاجي ، لتبدأ المزايدة على نوع السلاح المستخدم في القتال ، في نزاله الأول اختار الفائز في المزايدة السواطير التي قبضتها قصيرة ، قال أنه لم يشعر بالشفقة اتجاه خصمه الذي لا يمكن أن يكون إلا مجرماً مثله وأنه لم يحاول ضرب خصمه مباشرةً بالساطور كما فعل منافسه ، وإنما قام بقذفه به على وجهه مما تسبب في فقدانه للوعي ليجهز عليه بعد ذلك . كما تحدث عن خصمه الرابع الذي كان نصف ميت جراء ضربة فأُنس تلايقها على رأسه في نزال سابق ، و كيف أنه اضطر إلى إمساك سكين خصمه في النزال السادس بيده اليسرى قبل أن يطعنه في عنقه ، و لحسن حظه فقد اختار الفائز في المزايدة عصي البزبول كسلاح في النزال السابع ، فتلقى مجموعة من الضربات التي وجهها له خصمه بكفه و رد بعضها بيده اليسرى المصابة في حين كان يركز ضرباته على قدمي خصمه إلى أن أسقطه أرضاً ليحطم رأسه بعد ذلك ، لم يكن يصدق أنهم سيدعونه يعيش بعد الذي عاينه و لكنهم و فوا بعهدهم ، و عالجوه جراحه في مصحة خاصة في مانهاتن ، و طلبو منه أن يتلقى كيف ما شاء في أرجاء المعمورة باستثناء أمريكا و إسبانيا ، أعطوه كل النقود التي جناها و أخبروه أن يستأنف حياته بطريقة عادلة و دون خوف ما لم يتحدث عن تلك النزالات . كشف لنا ياسين عن بعض جراحه الملتئمة و تأسف عن جراح روحه التي لم تلتئم بعد ، و عن النوم الذي لم يتلذذ به منذ أن وطأت قدماه بلاد العم سام .

قال ياسين بعد حكيه الطويل :

- بعد عودتي إلى المغرب بشهرین زارني السيد عبد القدوس و أخبرني أنه هو المزايِد الذي اختار عصي البزبول في النزال السابع ، و أنه اختارها لأنني كنت مصاباً و لأنّ خصمي كان فليبني متذمراً حرکاته بالخفة و الرشاقة ، و ما كنت لأنجو لو تقاتلنا بسلاح أبيض ، و أخبرني أنه خسر ثروة في تلك المزايدة ، و طلب مني إسداء خدمة مقابل ذلك الجميل ، و ما كنت لأرفض بعدما تيقنت أنه كان هناك بالفعل ، على الرغم من أن طلبه كان أغرب و أصعب من النزالات .

توقعـت من السيد ياسين أن يخبرـنا بالخدمة التي طلبـها منه السيد عبد القدوـس و لكنـه غيرـ الموضـوع و قال :

- النفوس المريضة كطـيور داخل قـفص ، و عندما تـنظر إلى طـائر يـقتل طـائراً آخر خـارج القـفص تـشعر بالـراحة و النـشـوة و تـكرـه الحرـية . لقد جـرت مـائـة و سـبـعة عشرـة مـبارـزة و قـتـل مـائـة و سـبـعة و عـشـرون مـتـبارـزاً في ظـرف ثـلـاثـة أـسـابـيع ، و لا زـالت تلك النـزالـات تـقام إلى يـومـنا هـذا ، و أـكـدـ لي السيد عبد القـدوـس أن تلك الـقتـالـات تـقام مـنـذـ مـئـاتـ السـنـينـ و أنها اـنـتـقلـتـ منـ روـماـ إلىـ نيـويـورـكـ معـ تلكـ الـحـلـقةـ الـمنـبـقةـ منـ الأـسـيـادـ .

فـطـنـ السيدـ عمرـ إلىـ رـغـبـتيـ فيـ مـعـرـفـةـ ماـذاـ كانـ مـطـلـبـ السيدـ عبدـ القـدوـسـ منـ يـاسـينـ ، و صـرـحـ بأنـ لاـ أـتـعبـ نـفـسيـ لأنـهـ حـاـولـ مـرـارـاـ معـ يـاسـينـ منـ دـوـنـ جـدـوىـ ، غـيرـ أـنـيـ حـاـولـتـ بـعـدـ ثـلـاثـةـ أـشـهـرـ منـ تلكـ الـجـلـسـةـ وـ حـصـلـتـ عـلـىـ الإـجـابـةـ الصـادـمـةـ .

اللغز الذي تمنى برنارد شو أن يجد له حل

استأذن ياسين العيدوس في الانصراف بعد أن احتسينا شاي ما بعد الغداء ، طلبت منه عنوانه وأعطاه لي فرحا ، وأعرب لي عن شدة سروره بالوعد الذي قطعته له بزيارته .

و فيما كان السيد عمر بوفلاح يستعمل مرحاض المطعم ، كان ذهني يتساءل عن ردة فعل أي عاقل لو أخبرته بهذه الأحداث التي عشتها ، فمن دون شك سيعتبرني معتوه أثرت فيه هوليود أو نزق حالم أصابه مس من بولليود . فليس كل ما يعرف يقال و الدھماء لا يشعرون بالشيطان حتى ولو أمسك بمختفهم .

أظن أنني لست نادما على سعيي في مفارقة الدهماء و لا يهمني إن كنت أنا من عثر على السيد عبد القدوس أو أنه هو من عثر عليّ ، و إلى حد هذه اللحظة فإني لا زلت أضع شارة التسعين ، و أجري في التحمية ، و سأدخل أرضية الملعب و ألعب عاجلاً أم آجلاً فيستحيل أن أكتفي بالمشاهدة ، و في المقابل من الصعب البدء في اللعب ما لم أتعرف على كل اللاعبين الكبار ، و إنّه لانتخار فتح ذلك الشيء دون الحصول على دليل استعمال ، و ليس أمامي في الوقت الراهن إلا كلمات السيد عبد القدوس اسعى إلى نفسك ثم اسعى بنفسك ثم اسعى لنفسك .

سألني السيد بوفلاح إذا ما كنت أرغب في المُحليات ، أجبت بالنفي و شكرته على كرمه ، ثم قلت :

– لعلك تعتقد أنني صرت أدين لك ببعض المعلومات .

– بصراحة هكذا أسلق ، أقدم بعض الخدمات البسيطة للذين أنتظر منهم فوائد مُربحة .

– ميكافيلية إذا .

– إذا أخذت سيرة سياسي معاصر من ذيل الطابور و قارنتها بكتاب الأمير ، فستعلم أننا نظم ذاك القديس ميكافيلي .

– يا سيد عمر لو نظرت إلى ميكافيلي نظرة بسيطة و محابية بعيداً عن القراءات المقرعة و التحليلات المتواترة لاستنتجت أن الرجل لم يكن سوى متملق كبير لم يأت بجديد ولم يؤسس لأي شيء .

– الميكافيلية عندك نظير لتملق !

– الميكافيلية عندي هي الخطوط الحمراء التي أباحها المتملقون للحكام قبل ميكافيلي و بعده .

– يعني هذا أنني إذا أردت تملق الحكم فيجب عليّ أن أجعل في شارة المرور ضوءاً أحضا بين ضوءين أخضررين .

– و هنا أبدع ميكافيلي فقد أباح للحاكم كل شيء ما عدا التفريط في منصب الحكم .

ضحك السيد عمر و قال :

– و هذا ما يود كل حاكم سماعه من الحاشية المحيطة به .

– تماماً .

ابتسם بخث و قال :

– يؤسفني يا سيد شعيب أن أخبرك أن الحاكم و منذ عصور طويلة لا يمكنه أن يباشر منصبه إلا بعد أن يتم ربطه بثلاثة حبال ، حبل يلف حول عنقه و آخر بوسطه و ثالث بقدمه اليمنى .

– هل هذه أحاديث خرافة ؟

– لقد كان خرافة يقول الحقيقة و لكن قومه لم يصدقوه .

– و من الذي يربط تلك الحال ؟

– أفراد من بنى قabil ، رهط السيد عبد القوس بأمر من الأسياد .

– معلوماتك غريبة !

فتح الزر العلوي لقميصه و قال :

– ما دمنا نتفوه بأحاديث خرافة فهل تستطيع أن تخبرني باللغز الذي تمنى برنارد شو أن يجد له حلًا

– على ما ذكر أنه لغز الرجل ذو القناع الحديدي في عهد لويس الرابع عشر .

– و هل عرفت أنت من هو ذاك الرجل ذو القناع الحديدي الذي عاش في عهد لويس الرابع عشر ؟

– هناك عدة تخمينات بعضها منطقية .

– كلها خاطئة و مضلة .

– كيف ؟

– ذلك الرجل ذو القناع الحديدي هو لويس الرابع عشر نفسه .

تأملت ملامحه محاولاً أن أستبين إذا ما كان يعتقد فعلاً ما يقول و يجزم به ، أم أنها استنتاجات شخصية منه ، فطن إلى مرامي و قال :

– نحن نروي أحاديث خرافة يا سيد شعيب ، أليس كذلك ؟

– و من الذي كان يحكم عندما كان لويس الرابع عشر في السجن بقناع حديدي ؟

– لويس الرابع عشر الذي بعثه الأسياد .

- و لم يلاحظ أي أحد الاختلاف ؟

- لم يكن هناك اختلاف ، فقريرن لويس المسجون كان مرشدًا للويس الحاكم .

- ولماذا لم يقتلوا لويس الحقيقي بدل سجنه ؟

- ليظل القرير محتفظاً بـكامل ذاكرة الملك ، فكل إنسان عندما يموت تدفن ذاكرته معه و يستحيل على أي مخلوق نبشها ، و لذلك كان بقائه حيا ضرورة و ليس رحمة به .

- إن صح ما تقول فالأمر أغرب من حديث خرافه نفسه .

- بذلك الطريقة سحب الحبل الذي كان يلف خاصرة الحاكم لويس الرابع عشر و قد لمح فولتير لهذا السحب عندما تسأله عن الذي كان معروفاً و قتله عند جميع الناس و صورته معروفة للجميع حتى يتم إخفاء وجهه بقناع حديدي.

- أعجبتني مسألة الحال هاته و لا أسلم لك بها .

- و ماذا لو أخبرتك أنهم سحبوا الحبل الذي كان حول عنق الحاكم جون كيندي و كذلك الحبل الذي كان يلف الرجل اليمنى للحاكم أدولف هتلر و عدد كبير من الحكام الذين سقطوا .

- و هتلر أيضاً ؟

- نعم ، رغم أنه كان من بنى قايبيل و التقى مراراً بالأسياد .

- لا أصدقك .

- أنت لا تصدقني لأنك شاب عاقل .

- أشم رائحة تهكم .

- التهكم ليس من طبعي ، أخبرني بما في جعبتك .

لم تعجبني الطريقة التي أنهى بها الموضوع غير أنني أذعن نظراً لفترة الطويلة الذي قضيناها في المقهى .

- هل تعرف خليفة أمزار ؟

قهقه بصوت عال و قال :

- هل أخبرك أنه يستطيع أن يطلعك على أسرار الجبّت ؟

- زعم أنه باستطاعته أن يدلني على من يعلماني الجبّت .

- و المقابل ؟

- ذلك الشيء المختوم الذي أعطانيه السيد عبد القدس .

عبس ثم أمسك بيده اليمنى على رسم يده اليسرى و مطذراعيه إلى تحت و قال :

- حسبي نفسى لذو شق على الصرخ الظنون ، و ها أنت تصرخ في وجهي أنك لذو شق على الحطم الحرون .

- لندع الرياحي و التفاضل بالسنين جانبا ، و أعطني رأيك في عرض خليفة أمزار .

- خليفة أمزار كذاب كبير و ورقة مكسورة ، وقد وصل غايته القصوى منذ سنين طويلة ، و دماءه لا تسمح له بأن يتقدم خطوة واحدة أخرى ، و لذلك رسم له خط أحمر إن تجاوزه احترق ، و لا شك أنه سيحترق قريبا .

- و هل تجاوز أسفل الهرم ؟

- إنه ذو نفوذ كبير ، و لكنه لم يستطع أن ينتمي إلى الهرم أصلا .

- حسبيه يعلم الكثير .

- هذا صحيح ، لأنه من الذين يطفون بالهرم و يتمسحون به و يعلمون من في الأسفل و من في القمة و من حل و من ارتحل ، و من صعد و من سقط و كل شيء عن ظاهر الهرم .

- و هل هذا حالك أنت أيضا ؟

- لا ، أنا أتمنى أن أعرف كل شيء عن الهرم ظاهرا و باطنا من دون أن أنتمي إليه .

- لقد سبق و أخبرتني أنك جعلت المعرفة غاية لك .

- أطن أنك لم تفتحه ، و أستبعد مسألة بيعه ، يبدو أنك سهل ممتنع ، و لكن إذا تشاركت معي المعرفة فذلك يرضيني .

- بالطبع سأفعل ، أما في الوقت الراهن فأرج منك أن تساعدني في نقل كتب السيد عبد القدس إلى حيث يمكن الاستفادة منها .

- أفضل مكان لها هو مكتبة البلدية و سأرسل لك غدا صباحا شاحنة ، و في المقابل أرج منك أن تحرس على أن نلتقي بعد ثلاثة أشهر من الآن .

- و لماذا ثلاثة أشهر ؟

- لقد علمت أن أحد الدميانات يملك شقة في باريس ، اسمه الحالي ديفيد برين ، و يعمل في عصرنا الحالي باحث متخصص في علم النبات و قد نشرت له عدة كتب مصورة ، حصلت على الاثنين منها مع أنها باهظة الثمن .

- الأمر لا يحتاج إلا ثلاثة أشهر .

- علمت أن السيد ديفيد برين يعيش متنقلًا في باراري العالم و لا يزور شقته إلا لمدة يومين أو ثلاثة أيام في السنة ، و غالباً ما تكون هذه الزيارة في الصيف .

- وماذا عن عملك ؟

- لقد أشعت أنني سأذهب إلى فرنسا من أجل إجراء عملية جراحية و رتبت الأمور جيداً ، و خلال فترة غيابي سيشغل نائبِي منصبي .

- وماذا إن لم يكن دميانا حقيقياً ؟

- مصادرِي لا تخطئ .

كان الأمر كما قال السيد عمر بوفلاح ، فقد التقى السيد ديفيد برين في باريس بعد بضعة سنين ، و رافقه في رحلة إلى باراري سويسرا لمدة أسبوع و قد كان السبب الرئيسي في مغادرتي للمحطة الرابعة من رحلة الصدام مع الشيطان ، و قبل ذلك استطاع من خلال ساعة واحدة أن يجعل من السيد عمر بوفلاح إنساناً متصوفاً .

لقد كان السيد ديفيد برين معمراً ، و لكنه لم ي quam نفسه يوماً في الصراع الحضاري ، و إنما ظل دوماً فيلسوفاً بثوب راهب أو راهب بثوب فيلسوف يسافر في الزمان و المكان . و سأذكر كل ذلك بالتفصيل كل في محطته المناسبة لأنها من المعالم المهمة في رحلة الصدام الكوني .

تجاوز التصديق و الهوس ليصل إلى الجنون

ساعدت في شحن الكتب على متن الشاحنة التي أرسلها السيد بوفلاح ، طلبت من سائقها أن يوصلني إلى أقرب نقطة من شارع الزرقطوني يمر بها في مساره ، تفضل و أوصلي إلى بداية الشارع . وجدت هدفي بعد عشرة دقائق من المشي على باب عمارة مكونة من ثمانية طوابق ، كان لوحة مكتوب عليها الدكتورة سناء أمزار طبيبة أسنان الرقم ثلاثة عشرة الطابق السابع .

أخبرتُ أني لم أحصل على موعد مسبق فطلبَ مني الانتظار على الرغم من أن العيادة كانت خالية ، و بعد نصف ساعة دخلت تلك السيدة التي كانت تجلس في الاستقبالات إلى غرفة الفحص ثم عادت و طلبت مني أن أرجع في الغد ، أخبرتها أن حالي مستعجلة و لا بد لي من رؤية الطبيبة اليوم ، قالت أنه بإمكانني زيارة طبيب آخر ، رفعت صوتي متعمدا و بدأت أصرخ و أذمر و أنه ما كان ينبغي لها أن تتركني أنتظر لمدة نصف يوم ثم تصرفني بخفي حنين ، مع أنها لم تكن إلا نصف ساعة في الحقيقة .

خرجت سناء أمزار فور سماعها لصراخي ، كانت شابة في السادسة والعشرين من عمرها نحيفة ذات بشرة بيضاء و شعر أسود مجعد ، كان أجمل ما فيها هو سواد عينيها و كبرهما ، طلبت مني فور خروجها أن أعود غدا لأنها متعبة ، كنت أعلم مسبقا أنها متعبة و حزينة ، و كيف لا يكون ذلك وقد فقدت زوجها و حبيبها عادل المرواني بطريقة مأساوية و ابنتهما خديجة لم تتجاوز بعد العاشرة من عمرها ، و قبل ذلك اضطررت إلى ترك بيت والدها لرفضه زواجهما من عادل ثم اضطررت مرة أخرى إلى تسجيل نفسها كأم عازبة و بالاتفاق مع عادل حتى لا يعلم أحد بانتساب الصغيرة خديجة إلى آل مرواني ، أما أصعب ما في الأمر فهو أن أكبر أعدائها في هذه الدنيا هم أقرب الناس إليها و خصوصاً أخوها مصطفى الذي لم أكن أعلم سر كرهها له .

قلت :

– اعتذر يا دكتورة عن الإزعاج ، و أرجوك أن تجري علي فحص أولي بسيط .

قالت :

– إذا كانت تؤلمك ضرس أو سن فيمكن لمريم أن تعطيك مسكنًا مجاناً .

– أرجوك ، فقط أقي نظرة .

– ادخل ، يمكنك أن تترك حقيبتاك هناك .

دخلت خلفها و أنا أتمتن أنه لا يمكنني أن أترك حقيبتي لأن فيها أشياء مهمة . طلبت مني أن أفتح فمي بعد أن استلقيت على كرسي الفحص فقلت :

– هل أنت متأكدة يا دكتورة من أنك ترغبين مني أن أفتح فمي .

- أجل ، و لا تعاود مثل هذا المزاح لأن مزاجي لا يسمح .

- أحمل في حقيبتي هذه أمانة إلى خديجة أمزار من عمتها صفية عهدت بها إلى قبل موتها.

ارتسمت علامات الخوف على محياتها و قالت بعدها رجعت إلى الخلف :

- ماذا تقول ؟

- كان يجب عليّ أن أفتح الحقيقة قبل أن أفتح فمي .

فتحت الحقيقة وأخرجت الصندوق وأعطيته لها ، وضعت المقص الذي تناولته في الوقت الذي كنت أفتح فيه الحقيقة جانبا ثم فتحت الصندوق و أمعنت النظر فيه جيدا ، قالت :

- هل أنت شعيب ؟

- لقد صرت مشهورا .

- هل منير هو الذي أعطاك العنوان ؟

- أجل .

- هل أخبرك بشيء ما ؟

- طلب مني أن أثنيك عن عزمك في قتل أخيك مصطفى .

اغرورقت عيناه بالدموع ، توقعت أن تجهش بالبكاء لكنها تجلدت و قالت :

- سوف أقتله و لا أظنك ستخبر الشرطة .

- لا لن أفعل ، و في المقابل سأحرص على أن تنفذ وصية صفية و تصل هذه الطلي
لخديجة ابنة عادل.

- لا شك أن ثمنها لا يقل عن مائة و خمسين ألف درهم .

- ما يهمني هو أن أسلّمها إلى خديجة بيدي و ليس ثمنها .

أخرجت من محفظتها ورقة نقدية من فئة مائتا درهم و طلبت مني أن أعطيها لمريم كثمن للكشف ، و
أن أنتظرها تحت لمدة عشر دقائق . بعد أقل من عشر دقائق نزلت و طلبت مني أن أرافقها إلى حيث
ركنت سيارتها التي كانت من نوع بيجو مائتان و خمسة ، و قبل أن تدبر مفتاح التشغيل نزعـت من على
الزجاج الخلفي للسيارة ورقة مكتوب عليها للبيع .

في تلك الرحلة القصيرة من شارع الزرقاطوني إلى شارع أنفا و التي استغرقت نصف ساعة أدركت
شدة الكره الذي تكنه سباء لعائلتها عامة و أخوها مصطفى خاصة و قد نعمت مرارا بالوحش ، قبل نهاية
شارع أنفا انعطفت يسارا لتصبح في الشارع الرئيسي للحي الحسني حيث تمر الحافلات المتوجهة إلى
البيضاء القديمة و إلى المحطة الطرقبية ولاد زيان .

كان ذلك المبنى مكون من ثلاثة طوابق ، سفلية يحوي ثلاثة محلات تجارية كُتب على باب أحدها للبيع ، و من طابقين سكنيين ، طلبت مني أن أنتظرها في السيارة و اتجهت صوب منزل يقع في الجهة الأخرى من الشارع ، و عادت برفقة سيدة سمراء بدينة تحمل خديجة بين ذراعيها ، فتحت باب المبنى و طلبت مني الصعود ، كانت شقتها تشغّل الطابق الأول بأكمله ، بعد أن جلسنا أمرت المرأة البدنية بأن تُعد الشاي . كانت خديجة نسخة طبق الأصل عن القبط فقد كانت تشبهه عادل و صفية إلى حد كبير غير أنها كانت ممتلئة ، طلبت مني سناء أن أسلِم ابنتها الأمانة فوضعت الصندوق بين يدي الصغيرة التي حاولت عصمه ، قالت سناء :

– لقد وفيت يا سيد شعيب بوعدك ، و يمكنك بعد أن تشرب الشاي أن تغادر و أنت مطمئن .

– وماذا عن طلب عادل الأخير ؟

سكتت حتى ظننت أنها ستطلب مني المغادرة قبل أن أشرب الشاي ، ثم قالت :

– هل تعرف ؟ لقد أخبرني عادل عنك .

– كيف ؟

– كنا نحاول أن نضع خطة لقتل مصطفى من دون أن ت horm الشبهات حولنا ، و سرعان ما كنا نكتشف الثغرات و المخاطر المحيطة بها فنتراجع ، و ذات مرة قال لي عادل سوف أستشير شعيب في الأمر ، و لما سأله من شعيب ؟ قال لي إنه شاب قروي يتخذ قرارات صائبة بعفوية و من غير تفكير .

– أقال ذلك ؟

– لن أتملّق أحداً بالكذب على عادل .

– ماذا لو قطعت لك وعداً بأن أساعدك ؟

دخلت المرأة البدنية و وضعـت أمامـنا الشـاي و المـكسرات ، أـعـطـتها خـديـجة و اـنـتـظرـتـ إـلـيـ أنـ عـادـتـ أـدـراجـهاـ إـلـىـ المـطـبـخـ ثمـ قـالـتـ :

– هل ستساعـدنـيـ فـيـ قـتـلـ ذـالـكـ الـوـحـشـ ؟

– إذا اقتنـعـتـ أـنـهـ وـحـشـ قدـ أـفـعـلـ .

– لـعـلـكـ تـعـلـمـ أـنـ أـبـيـ مـهـوـوسـ بـالـأـسـاطـيرـ التـيـ تـتـحدـثـ عـنـ الدـمـاءـ الزـرـقاءـ .

– أـعـلـمـ .

– وـ لـعـلـكـ تـعـلـمـ أـنـ زـوـجـ عـمـتيـ السـيـدـ عـبـدـ الـقـدـوسـ كانـ هوـ الـآخـرـ يـصـدـقـ بـتـلـكـ الـخـرافـاتـ .

– أـجـلـ أـعـلـمـ .

- و الذي لا تعلمه هو أن مصطفى تجاوز التصديق و الهاوس ليصل إلى الجنون .

- إذا فهو مجنون و ليس وحش .

- إنه وحش مجنون يبحث عن الخلود بفعله لأشياء تألف الوحوش عن القيام بها .

- مثل ماذا ؟

- أرسله والدي إلى فرنسا ليتابع دراسته الجامعية غير أنه انقطع عن الدراسة بعد سنتين و ظل بفرنسا لمدة ثمانية سنوات و عاد وقد تغيرت ملامحه و تصرفاته ، لقد أخبرني أنه عندما كان في فرنسا قام بقتل فتاتين كوتغواريتين و أخرى أكرانية ، لم أصدقه و بعدها بمدة سألني إن كنت أعرف المرأة التي تستغل عند عائلة مجاورة لمنزل والدي ، قلت نعم فأخبرني أنه سيقوم بذبحها صبيحة يوم الأحد و ذبحت في نفس الوقت كما قال .

- بلغني عنه الشرطة .

- الذي قتل الشغالة هو خذنها و قُبضَ عليه و اعترف ، و بعد ثلاثة أشهر أخبرني أنه سيقوم بقتل الحلاق الذي في رأس الشارع بحلول السنة الميلادية الجديدة ، و في الدقائق الأولى من السنة الجديدة تشاجر شابان مخموران في محل ذلك الحلاق المسكين الذي تدخل لفظ الشجار فتلقى طعنَة عن طريق الخطأ أودت بحياته .

- ما تقولينه شيء لا يصدق .

- و أخبرني بثلاث جرائم أخرى في مدینتين مختلفتين و لا أعلم شيئاً عن صحتها .

- ألهم السبب تريدين قتله ؟

- لما تزوجت عادل امتنعت عن الكلام مع مصطفى ، و كلما التقى به أبدل جهداً في أن لا أسمع منه شيئاً ، و بعد أن حبت بخديجة و كنت في شهرِي السابع وجدته ذات مساء يجلس على الدرج الذي صعدنا منه قبل قليل فتجاوزته من غير أن أكلمه ، و في الوقت الذي كنت أبحث في حقيتي عن مفتاح الشقة قال لي سوف تلدين بنتاً و سأقتلها عندما تبلغ ثمانية عشرة شهراً و بدمها سيكتب لي الخلود ، لم أستطع النوم تلك الليلة ، و بعد أن جاء عادل و أخبرته بالأمر أغمض هو الآخر ثم تصبرّ و قال لا تخافي سنقتله قبل أن تبلغ ابنتنا السنة و النصف من عمرها ، و الباقي تعرّفه يا شعيب.

قالت :

- إنه لأمر غريب ، و لكنه يبقى مخالف للمنطق و أظن أن في الأمر دجل .

- أنا مثلك لا أؤمن بالخرافات و لكن مجموع القرائن يشكل دليلاً ملماساً لا يمكن تجاهله .

- كم عمر خديجة الآن ؟

- سنة وشهر واحد وثمانية أيام .

تذكرت خديجة و هي تحاول عض الصندوق ثم تذكرت صفيه و هي ميتة على سريرها فقلت :

- إذا كان مصطفى هذا ينوي قتل طفلة تبلغ من العمر سنة و نصف من أجل خد
مزعوم فكلمة وحش استعارة تلقي به ، غير أنه لا يمكننا تجاهل وصية عادل الأخيرة ، فلا بد أنه علم
أمراً مهما قبل موته .

أرادت الكلام فتلعثمت و ارتبت ، و وضع وجهها بين كفيها و جعلت كوعيها على فخديها و لزالت
السکوت . قلت :

- إذا كنت متربدة فأنا صحي أن تفكري بحل آخر غير القتل .

- لقد أراد حمايتي .

- من؟

رفعت رأسها .

- قبل مقتل عادل طرق مصطفى علينا الباب و عندما فتحنا قال بصوت عال : لن
يستطيع أحد قتلي و بعد ثلاثة أيام ستعلمون من يكون مصطفى أمزار ، أجابه عادل بكلمة جعلته
يُولي هاربا ، و بعد ثلاثة أيام قُتل عادل .

سألتها عن مكان سكن مصطفى فأشارت بسبابتها إلى السقف ، و لما رأت نظرة الاستغراب على
وجهها أوضحت لي أنه لما كان مصطفى لا يزال في فرنسا قام خليفة بتوزيع إرث زوجته على الورثة ،
فأخذ شطرا من نصيب مصطفى و أرسله له على دفعات ، و ما تبقى اشتري به بقعة أرضية ، ثم أخذ
نصيب سناء و بنا به منزلًا على تلك البقعة و جعل الملكية بينهما مناصفة المحل التجاري الكبير و
الطابق الأول لسناء ، و المحلان التجاريان الآخريان و الطابق الثاني لمصطفى ، و في ذلك الوقت لم
تمانع سناء ، بل رحبت بالأمر لأنها لم تكن تعلم بالتغيير الذي طرأ على شخصية مصطفى .

فلما تزوجت بعادل رفض والدها ذلك الزواج و وقعت بينها وبينه خصومة لا تزال قائمة إلى تلك
اللحظة ، فقامت برفقة عادل بتأثيث شقتها و جعلاها عشاً لزوجية ، و كان عادل لا يبيت خارج البيت
إلا نادراً و ذلك منذ زواجهما قبل سنتين و إلى أن قتل . أما مصطفى فبعد قدومه من فرنسا قبل ثلاثة
سنوات لم يمكث في بيته العائلة إلى ستة أشهر ثم طرده والده فانتقل إلى شقته ، كما أخبرتني أنها و
منذ أن قتل عادل لم تبته في شقتها ولو ليلة واحدة و أنه كلما حل المساء تحمل ابنته و تذهب لتبيت في
فندق بالبيضاء القديمة كما أنها كانت تنوي تأجير شقة مفروشة ، و عجزت بسبب إيرادات العيادة
المتدنية و لذاك حاولت بيع سيارتها أو المحل التجاري .

و أخبرتني أنها لن تحتاج إلى بيع السيارة أو المحل بعد أن حصلت على تلك المجوهرات التي لا يقل
ثمنها عن مائة و خمسون ألف درهم ، ولكن الذي حصل فاق التوقعات ، فقد بيعت المجوهرات بثمن
خمسمائة ألف درهم ، و قد علمنا فيما بعد أنها تساوي أكثر من ذلك بكثير ، فقد كانت بها أحجار كريمة
باهضة الثمن ، لم نستطع اكتشاف قيمتها الحقيقة إلا بعد أن بيعت المجوهرات بأيام .

استطعت أن أنتزع من سناه و عدا بأن لا تفك بمصطفى و لا بقتله لمدة ثلاثة أشهر ثم لها بعد ذلك
أن تفعل ما تشاء ، و اتفقت معها على اكتراء محلها التجاري بمبلغ ثمانمائة درهم شهريا ، و أقسمتْ
بأن لا تأخذ مني ثمن الإيجار لمدة شهرين ، كما أنها جعلت العقد مفتوحا و لم تحده بمنتهية .

العالم الحقيقي مخيف

فور عودتي من الزيارة الأولى التي قمت بها لسناء أمزار أخبرتني عمتي أن شابا ، يعمل على سيارة أجرة سأل عنني مرتين ، و أنه أبلغ أنه سيعود عند الساعة الرابعة عصرا .

عند الرابعة إلا عشرة دقائق ، طرق الباب فخرجت إليه ، كان في الخامسة والثلاثين من عمره اسمه عثمان الهواري ، حاصل على الإجازة في اللغة الفرنسية ، و يعتبر هو وأخوه رضوان الهواري من الأعضاء النشطين داخل جماعة البر والميزان الواسعة الانتشار في المغرب ، وقد كان أبوهما السيد عبد العظيم الهواري من قيادات الجماعة .

طلب مني أن أرافقه إلى حيث يركن سيارته التي كانت تاكسي حمراء صغيرة من نوع فيات تحمل الرقم سبعمائة و واحد و ثلاثون ، كان كلامه في غاية الهدوء واللباقة ، مع ابتسامة تجعلك تجزم بحسن نيته ، رافقته دون تردد ، طلب مني الصعود و أخبرني أنه يجب علي أن ألتقي سائحة كندية تنتظرني في مقهى يقع قرب باب مراكش بالبيضاء القديمة ، سأله من تكون هذه السائحة؟ و ماذا تريد مني؟ فأخبرني أنه في صبيحة هذا اليوم طلبت منه إحدى الموظفات التي تعمل في فندق ليالي غرناطة أن يرافق سائحة كندية إلى حي كولومبيا السيئ السمعة ، اعتذر في بادئ الأمر فأعلمه موظفة أن السائحة لا تبحث عن الحشيش ، وإنما ترغب في لقاء أفراد عائلة شاب غرق مؤخرا لتعطيهم شيئاً يخصه و طلبت منه تلك الموظفة أن يعتنني بميكائيلا لأنها لا تعتبرها مجرد زبونة و إنما تعتبرها صديقة عزيزة .

في حي كولومبيا سألا عن بيت حمزة المرواني فعلمـا أنه لا يقطنه أحد في الوقت الراهن و أن أخيه أحمد المرواني قد يكون هاجر إلى إسبانيا ، و لما سألا عن أقاربه أخبرـما أحد الجيران عن حالـه خليفة أمزار ، ولكـه لا يـعرف عنـوانـه ، و قد يحصلـانـ عليهـ منـ الصـحـراـويـ صـاحـبـ الـبـقالـةـ التـيـ تـقـعـ فـيـ مـدـخلـ الـحـيـ مـنـ جـهـةـ تـجـزـئـةـ السـبـتيـ ، اـعـذـرـ الصـحـراـويـ لـعـدـ مـعـرـفـتـهـ عـنـوانـ خـلـيـفـةـ أمـزارـ وـ أـخـبرـهـماـ أنـ مـفـاتـيحـ بـيـتـ آـلـ مـرـوـانـيـ صـارـتـ عـنـدـ شـعـيبـ مـوـدـودـ ابنـ أـخـ السـيـدةـ نـعـيمـةـ ، وـ أـنـ حـمـزةـ هوـ مـنـ سـلـمـهـ المـفـاتـيحـ قـبـلـ غـرـفـهـ بـيـوـمـيـنـ ، وـ مـاـ إـنـ عـلـمـتـ مـيـكـاـيـلـاـ بـهـذـهـ التـفـاصـيلـ حـتـىـ أـصـرـتـ عـلـىـ لـقـائـيـ ، وـ بـعـدـ أـنـ سـأـلاـ عـنـيـ مـرـتـينـ طـلـبـ عـثـمـانـ مـنـ مـيـكـاـيـلـاـ أـنـ تـنـتـظـرـ فـيـ المـقـهـىـ مـنـ السـاعـةـ الـرـابـعـةـ إـلـىـ حدـودـ السـاعـةـ السـابـعـةـ مـسـاءـ وـ إـنـ لـمـ يـحـضـرـ بـرـفـقـتـيـ قـبـلـ ذـالـكـ الـوقـتـ فـسـيـمـرـ لـيـصـطـبـحـهـ صـبـيـحـةـ الـيـوـمـ التـالـيـ لـيـعـاوـدـ الـمحاـولةـ مـرـةـ أـخـرىـ .

في المقهى كانت ميكائيلا تجلس في الردهة مرتبية نظارة شمسية واضعة أمامها أربعة كتب رصت عموديا ، و قبل أن نصل إليها سألهـ عـثـمـانـ إـنـ كـنـتـ أـجـيدـ الـفـرـنـسـيـةـ أوـ الـإنـجـلـيزـيـةـ ، أـخـبرـتـهـ أـنـيـ لاـ أـجـيدـ التـكـلمـ إـلـاـ بـالـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ .

قالت ميكائيلا بالفرنسية :

ـ أـهـذـاـ هوـ شـعـيبـ؟

قال عثمان :

- أجل ، و لكنه لا يجيد غير العربية .

لوت شفتيها باستخفاف ثم قالت :

- حسنا ، اذا كان يعلم الأسباب التي دفعت بحمزة المرواني إلى الانتحار فليخبرنا بها ، و إن لم يكن يعلم فخذ منه عنوان خليفة و أعطه مائة درهم ثمن مصاريف عودته إلى حي كولومبيا و سنتحاسب في طريقنا إلى منزل خليفة .

فهمت معظم كلامها و قلت قبل أن يتكلم عثمان الذي احمر وجهه خجلا من فظاظتها :

- قل لها أن تنزع النظارات أولا ، فمن الإجحاف أن تنظر إلى روحي من النافذة الوحيدة في الجسم التي يمكن من خلالها اختلاس النظر إلى روح أي مخلوق في حين تُحْمِرُ هي نافذتها بذلك الشيء الذي يحجب النافذة و يحجب معه خلق التواضع .

قال عثمان ممتاز بالعربية ثم ترجم لها ، ظلت على حالها لم تتكلم و لم تنزع النظارات فقلت لعثمان :

- من الواجب عليك أن تعيني إلى الموضع الذي أحضرتني منه ، أم أن تفرسي فيك أخطأ و تفكري في إعطائي المائة درهم .

- بالطبع سأعيديك إلى حي كولومبيا ، وأشكرك على روح التعاون التي أبديتها .

سألته ميكائيلا ما الأمر فأخبرها أنه سيقوم بتوصيلي و يعود مباشرة ، نزعـت النظارة و ركزت نظرها على سطح المائدة و قالت :

- حسنا ، حسنا ، أظن أن في الأمر سوء تفاهم لقد مررت بأسبوع صعب ...

نظر إلى عثمان و أشار لي بأن الزم الصمت .

- ... قدمت إلى المغرب لأقضي شهرا ممتعا في بلد عربي من العالم الثالث ، و كان الأمر جيدا في البداية شباب وسيمين و مرحين و متملقين لا يختلفون عن أصدقائي الكنديين ، و كذلك شباب انتهازيين و لُدّاء السائحة عندهم تساوي الجنس و المال . لكن الأمر تغير . حمزة المرواني أعطى صديقه حليا قد تقدر بألف و مائتان دولار و أعطى لآخر مبلغ نقدى يعادل ألف دولار أو أكثر ، و أعطاني قلادة عرضتها للبيع على الانترنت بهدف معرفة قيمتها و ليس من أجل بيعها ، فوصل ثمنها إلى خمسين ألف دولار و لا زالت المزايدة مستمرة ...

قطعاها حضور النادل ، طلب عثمان إبريق شاي متوسط الحجم و ترجم لي كل ما لم أستطع فهمه من كلامها و طلب مني بأن لا أقطعاها ، قالت :

- اخترقت كلمات حمزة روحي و عنبتها الطريقة التي مات بها ، لم يكن شخصا من العالم الثالث أو الأول لقد كان من عالم آخر مغاير تماما لعلمنا ، و كل ما احتاجه هو ثلاثة ساعات ليجعلني أشعر بأن العالم الحقيقي مختلف تماما عن العالم الذي يتصوره الناس سواء في كندا أو في المغرب ، لقد جعلني أنتبه إلى أن العالم الحقيقي مخيف ، مخيف جدا .

ترجم لي عثمان و طلب منها أن تستمر في الحديث إذا ما أحببت أن تصيف شيئا آخر .

قالت :

– لقد قال حمزة أن بودلير لم يكن ليشتهر لو أنه لم يكتب قصيدة صلوات للشيطان ، ولكنه لم يصدق إلا حين قال :

أيها الألم إن الزمن يبلي الحياة
و العدو الغامض الذي ينهش قلوبنا
على دمنا المسفوح ينمو و يقوى

هل تعرف يا سيد عثمان و أنت أيضا يا سيد شعيب لقد ارتمى حمزة في جوار البحر خوفا من أن يحز ذلك العدو الغامض رأسه ، ولكن البحر خفر جواره و عجز عن حمايته ، لقد كان حمزة يتصور قوة عدوه و لجا إلى محاولة أخيرة يائسة . لا يخفىكم هذا ؟

سكتت و نظرت إليها منتظرة الجواب ، ترجم لي عثمان ثم قال :

– ألا تتفق معي يا سيد شعيب أن ميكایلا كانت تتبتل في صومعة أفلاطونية قبل أن تخرجها شخصية حمزة إلى الواقع لتصطدم بحقيقة أنها جزء من الحدث و ليست صانعة له . قلت :

– صحيح ، فالعدو الذي تحدث عنه حمزة واقع و حقيقة موجودة و لم يتخيله أو يتصوره .

طلبت من عثمان أن يترجم لها حديثا ففعل ، نظرت إليه ثم إلى عثمان و قالت :

– حسب قولكما حمزة لم تقتلته هواجسه و تخوفاته من أمر ما ، وأن تلك الهواجس ليست هي من جعل حمزة يقرر الانتحار ، وإنما الفاعل هو عدو حقيقي موجود بذاته مخالف لجنس البشر .

أحضر النادل الشاي و ترجم لي حمزة كلام ميكایلا في الوقت الذي بدأ فيه تهيئة الشاي على الطريقة المغربية . قلت :

– نحن لا نختلف أن هناك عدو ، و اختلافنا في ماهية العدو ، فأنت يا ميكایلا بسبب قالبك الغربي الذي يجعل لكل حادث غريب تفسيرا علميا سواء أكان هذا التفسير معقولا أو سخيفا تعتقدين أن العدو أنتجته تصورات حمزة و نحن بسبب قالبنا الشرقي الذي يجعل لكل حادث غريب تفسيرا غبيا مسلما به سواء أكان ذاك التفسير معقولا أو منقولا نعتقد أن العدو كان موجودا في الواقع قبل أن يولد حمزة بآلاف السنين و لا يزال .

ضحك ساخرة لما ترجم لها عثمان و قالت :

– هل تريدان مني أن أصدق مثلا أن حمزة كانت له عداوة مع الشيطان فدفعه إلى البحر ثم فصل رأسه عن باقي جسده لأنه توعده من قبل بفعل ذلك .

قال عثمان :

- لا أنا و لا سيد شعيب نجزم أن من فصل رأس حمزة عن باقي جسده شيطان أم ملاك أم سمكة قرش ، ولكننا نعتقد بوجود الملائكة والشيطان بذوات حقيقة خاضعة لزمان و المكان تتميز بالإدراك والإرادة ، تؤثر بالأفعال الصادرة عنها و تتأثر بالأفعال الواردة إليه تماما كما نعتقد بوجود القرش .

قدم عثمان أكواب الشاي و ترجم لي ثم تسأله إن كنت أتفق معه ، حركت رأسها إيجابا ، قالت :

- القرش موجود بالفعل في البحر .

قال :

- و الشيطان ؟

قالت :

- لا يوجد إلا في عقولنا .

قال :

- تماما ، فالقرش يسبح في البحر و الشيطان يسبح في العقل و إذا عجزنا عن إثبات وجود الشيطان فحتما سنعجز عن إثبات وجود العقل ، و إذا سلمنا بوجود العقل دون الارتكاز على دليل حسي ملموس فلا يوجد أي مانع من أن نسلم بوجود الشيطان دون الارتكاز على دليل ملموس.

بعد الترجمة تذكرت السيد عبد القدس فقالت :

- صدق غوته الدهماء لا يشعرون بوجود الشيطان حتى ولو أمسك بمخلوقهم .

قال عثمان : جيد ، ثم ترجم لها ، قالت متعجبة :

- هل قالها فعلا ؟

قلت :

- راجعي فاوست .

قال عثمان :

- ما هو ذلك الشيء الذي تريدين إيصاله لعائلة المرواني .

قالت :

- القلادة أظن أن حمزة لم يكن يعلم ثمنها الحقيقي .

قلت :

- أخبرها أن القلادة صارت لها و يمكنها أن تفعل بها ما تريد ، و لو أنها تصادف و التقت خليفة أمزار خال حمزة لأخذها منها بلباقه و كياسة ، و إنني أعلم يقيناً أن حمزة كان يفضل أن تخفي القلادة مع رأسه على أن تقع في يد خاله .

قبلت ميكايلا توجيهي و قررت الاحتفاظ بالقلادة ، استأذنت في الانصراف و هممث بدفع ثمن الشاي و لكن عثمان أقسم أن يدفع لأنه هو من طلبه ، و أخبرني أنه لن يتضرر مادياً إذا ما أوصلي إلى حي كولومبيا لأنه جعل التاكسي ذاك اليوم في خدمة ميكايلا من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة السابعة مساءً مقابل مبلغ ألف درهم ، أعربت ميكايلا عن رغبتها في مرافقتنا لم نمانع ، و في الطريق هممث بأن أخبرها عن شيء ولو بسيط من الحوادث التي وقعت لي منذ أن تعرفت على آل مرواني غير أنني تراجعت و قلت في قراره نفسي ليس كل ما يعرف يقال .

وفي المقابل تحدثنا طيلة الطريق عن تناقض الإنسان الغربي الذي يعيش مادية هستيرية في عالم مادي محموم ، و عندما يتعلق الأمر بالغيبيات فإنه يفسرها تفسيراً يعتمد على المثالية الذاتية ، و الغريب في الأمر هو تغلب الأنانية الإلحادية على معتقدات الم الدينين منهم و أصبح المسيحيون الحقيقيون في الغرب مع ندرتهم أسوأ حالاً من أسلافهم في زمن نيرون ، و لا تنظر إلى أجسامهم المنعمة و لكن تأمل أرواحهم كيف تعاني .

ظننت أن لقائي بميكايلا السائحة الكندية و عثمان الهواري الشاب المثقف كانت تجربة طيبة و عابرة ، و لكن ما حدث هو أنه بعد ثمانية و أربعين ساعة فقط التقينا مجدداً و ناقشنا أمر القلادة بعدما تعرضت ميكايلا و على طريقة أفلام جيمس بوند لتهديد بالقتل .

العدو الغامض يتربص بك

انتهى الموسم الدراسي لسنة ثمانية و تسعون تسعمائة و ألف تسعه و تسعون تسعمائة و ألف في نفس اليوم الذي التقى فيه بناء أزار ثم بمكايلا و عثمان ، علمت صبيحة اليوم التالي بنبأ رسوبى الذى كان متوقعا نتيجة الصدام الذى حصل مع الأستاذ الخاول و كثرة الغياب و منه ما هو مبرر بشواهد طيبة كنت أحصل عليها مقابل مبلغ خمسين درهم ، و بانتهاء الموسم الدراسي بقيت أمامي عشرون يوما لحفل الزفاف الذى حدد يوم العاشر من يونيو .

حصلت على النتيجة و اتجهت مباشرة إلى شارع الزرقطونى و التقى بناء فى المكان الذى حددناه مسبقا ، كانت برفقة المرأة البدينة التى كانت تلاعب خديجة في المقاعد الخلفية للسيارة، اتجهنا أولا إلى درب السلطان حيث باعت بناء مجوهرات خديجة و استلمت الثمن نقدا . ثم رافقتها إلى وكتالها البنكية و انتظرتها إلى أن أودعت المال ، و من ثم توجهنا إلى مصلحة تصحيح الإمضاءات و وقعنا عقد كراء المحل التجارى و استلمت المفاتيح ، ثم أوصلتني إلى حدود تجزئة السبتي .

قمت بعدها باستئجار سيارة نقل و طلبت من مبارك ابن عمتي الذى كان قد مضى على خروجه من السجن ثمانية أيام أن يساعدنى في نقل تلك الأشياء التي لا تزال في بيته المروانى إلى الحي الحسنى ، وافق على مضمض ، وذالك أنه تقعق على نفسه منذ أن خرج من السجن ولم يغادر البيت إلا مرة واحدة حضر فيها صلاة العشاء في المسجد و بعدها لم يُرى لا خارج البيت و لا مصليا ، لما دخلنا بيته آل مروانى جلس في ركن من البيت الخالي و شرع في البكاء شعرت بحزنه على آل مروانى و خصوصا عادل ، لقد سبب له الشهور الستة التي قضاهما في السجن من أجل شجار لا ناقة له فيه و لا جمل بالإضافة إلى خبر مقتل عادل صدمة نفسية جعلته يميل إلى العزلة .

أردت أن أتباهى إلى أن ما حدث ليست نقطة نهايته وإنما هو منعطف ، و هو من عليه أن يدير الدفة :

- هل تبكي على ضياع الحشيش المجاني ؟

كفكف دموعه و قال :

- الحشيش لم يكن مقودا في حي كولومبيا عندما كان آل مروانى يقطنون في الوازيس ، و سبقى كذلك جيلا بعد جيل . لقد أفلعت عن جميع المخدرات .

- ليس من الصعب أن تُقلع و لكن الصعب هو تحديد الأسباب التي جعلتك تقلع ، لعلها تكون نفس النزوة العاطفية التي جعلتك تتوقف على نفسك .

نهض و قال :

- أين هي تلك الأشياء التي تريد نقلها فلا رغبة لي في الإصغاء إلى برنامج ركن المفتى .

نقلنا الكتب و كرسي السيد عبد القدوس ، و في ما كنا ننقل سرير صفية سقط من بين تلافيف اللحاء دفتر بغلاف أصفر ، قمت بوضعه بين الكتب .

كان طول المحل عشرة أمتار و عرضه أربعة ، فتحت درفات الباب الأربع ، و لما انتهينا من إزالة الأشياء و وضعها بوسطه و عاد مبارك مع صاحب سيارة النقل بعد أن أديث إليه ما اتفقنا عليه أغلقت باب المحل و تركت درفة واحدة مفتوحة ، أضأت المصباح و شرعت في كنس الأرضية ثم وضبت تلك الأشياء ، انتهيت عند الساعة الرابعة عصرا ، بحثت بين الكتب عن الدفتر صاحب الغلاف الأصفر و جلست على السرير . كانت مذكرات صفية ، نظرت إلى آخر ما كتب قرأته .

لقد رأيت والدي في المنام ، كان يحتضن أخي عادل بذراع و يفتح لي الأخرى و قد أولتها أبي سالحق به ، و أتمنى أن تكون رؤيتي لعادل في الحلم ترمز إلى شدة حزنه على وفاة أبي و ليس أن عادل سيسبق إلى اللحاق به . و أظن أن الموت و إن كان مكرورا عندي يبقى قطرة ضرورية يجب على كل مخلوق حي أن يعبرها ليكتشف صحة أو زيف ما كان يعتقد ، و بما أن ملامح والدي في المنام كانت تُعبر عن السرور فإني أعتقد أنه جاء ليشترني بالموت و ليس لييندرني منه ، و إذا طاوعت نفسى و اعتبرت تلك الرؤية أضغاث أحلام فسيكون ذلك تصرفًا سفيها ، لأنه من السخافة أن أفر من أمر حتمي سواء وقع في العاجل أو في الآجل . لقد كانت في نفسي جملة من الرغبات والأمنيات تتصارع مع إحساسى بالمسؤولية و معرفتي التامة بواقعى الدنبوى الذى لم يكن أخضرًا في يوم من الأيام . الموت تجربة لن تكون ممتعة و كل ما أرجوه من الله سبحانه و تعالى هو أن أموت أثناء النوم حتى لا أتعذب ، و سأحرص على أن أصلى قبل النوم في ما بقي لي من أيام .

تذكرت منظرها و هي ميتة على سريرها فسررت في جسمى قشعريرة مشابهة للتي شعرت بها في المرة السابقة ، وضعت الدفتر و خرجت إلى الشارع و بقى واقفا لحوالي ربع ساعة ، ثم دخلت و فتحت الدفتر مجددا ، لم أحدد صفحة معينة ، قرأت .

خرج قبل قليل أخي عادل و منير بعد أن تعشينا معا و تذكروا ذالك اليوم الذي زارنا فيه خالي خليفة أول مرة بعد انتقالنا إلى حي كولومبيا ، و كيف تعرض للسرقة تحت تهديد السلاح ، لقد سلبه كل شيء حتى سترته و حذائه ، و بعد أن علم الفاعلون أنه ضيفنا أعادوا الحذاء و السترة ، كان عادل يتذكر منظره و هو حافي و يضحك ، قال أن اللصوص اعتذروا من حمزة بأنهم لم يعلموا أنه خاله إلا بعد أن صرفا نقوده التي سرقوها منه و أنهم باعوا الساعة مباشرة بعد سرقته و لم يرجعوها هي الأخرى ، صفع حمزة واحدا منهم و قال له ما كان عليك أن تعيد الحذاء و السترة فخالي يستحق أن يعود لبيته حافيا قال اللص أبشر سنتظره إلى أن يخرج و نسلبه كل شيء حتى سرواله الداخلي ، ضحك حمزة و قال لا ليس بعد الآن و حذركم من التعرض مجددا لأي ضيف يزور بيت المرواني .

كان عادل يتحدث و دموعه تسيل من الضحك ، لقد ضحك أنا أيضا كما لم أضحك من قبل ، أما منير فهو مقصد في الضحك و الكلام دائمًا .

منذ أن عقلت و منير فرد من الأسرة ، لم يرفض لي طلبا قط و لم يطلب مني أي شيء طيلة حياته ، و لا يوجد رجل في هذه الدنيا من أقصاها إلى أدنىها يجعلني أشعر أنني أثنتى إلا منير على الرغم من أنه لا ينظر إلى بتاتنا و إذا ما تصادف و أن التقى أبصارنا فإنه يغض بصره عنى فورا ، أنا أعرف أن تصرفاته معى يمكن أن تكون شفقة ، و يمكن أن تكون احترام و إجلال ، و لكن فترة

العشاء الممتعة التي قضيناها قيل قليل فتحت شهيتي للتخيلات ، فلا بأس أن أتخيل أن منير مغمض بي ، وأنه كلما آوى إلى فراشه تصفح جميع صوري التي تسمح ذاكرته باستردادها ذهنيا ، وأنه لا يمنعه من الإفصاح عن شعوره إلا خوفه من ردة فعلي ، ولا بأس أن أتخيل أيضاً أن منير تقدم لخطبتي فرفضت في بداي الأمر ثم وافقت بعد توصلاته المصحوبة بالدموع وبأمر من والدي لم يترك لي مجالاً لمزيد من التذلل . وأنني رفضت أن أنام بجانبه ليلة الزفاف فنام على الأرض دون تنفس ، وأنه كان يرفض فكرة الحمل تماماً لخوفه على صحتي ، وأنه يكتب لي قصائد شعرية يعبر فيها عن حبه لزوجته التي هي أنا ، صحيح أنها قصائد ركيكة لا تشبه رسوماته المتقدمة ولكنها تُشعرني بالسعادة . وأنه همس في أذني أن الذي ما تذوقه في حياته هو طعم أحمر الشفاه الذي أضعه . وأنني سأله عن ردة فعله إذا ما أصررت على رفضي الزواج منه فقال أنه كان سيخطبني عندها ولما سأله ماذا كان سيفعل إذا ما تزوجت شخصاً آخر غيره غصب ورفض الإجابة ، فبدلت السؤال وقلت وماذا ستفعل إذا ما مت ، فأخبرني أنه سيقى وفياً لي إلى أن يلحق بي .

إنها تخيلات مصدرها صفيحة الأنثى التي تقع في الوادي العميق من أحشائي ، تخيلات نبعث من بئر العواطف المنضبطة و الملاذات الملجمة بميزان العقل الواقعي و نطاق الفطرة السليمة ، تخيلات سخيفة لكنها تعجبني . ولو لم أكن أعلم أنني سأحرق هذا الدفتر إذا ما امتلاً كما فعلت بأسلافه ما كنت لأكتبه .

توقفت عن القراءة مباشرةً بعد أن قرأت الجملة الأخيرة ثم توجهت إلى أقرب بقال و اشتريت ولاعة ، و عدت إلى الدفتر فنزلت عنه غلافه ثم أحرقته ، كنت أجلس على سرير صفيحة و أنظر إلى مذكراتها وهي تحترق . فكرت في أن أستريح قليلاً قبل العودة إلى حي كولومبيا فاستلقيت على ظهري و رحت أنظر إلى السقف وأخمن فيما إذا كانت صفيحة ستقبل باستعمالي لسريرها أم لا و حينها يستوجب على حرقه كما فعلت بدفتر الذكريات . غفوْت فرأيت صفيحة ، كانت عابسة قالت :

– ما كان ينبغي لك أن تقرأ مذكراتي .

قلت :

– لقد أخطأت ، و الحنين إلى الحديث معك هو ما دفعني إلى التطفل .

– لو أنك أتممت قراءة الدفتر لما فكرت بزيارتكم .

– و لكنك ميتة !

– الموت لا يعني الاقتحام في العدم ، وإنما هو انتقال و عبور .

– و هل تمانعين إذا ما استعملت سريرك ؟

– لا أمانع ، ولكن يجب أن تعلم أنه لا يزال يحتفظ بأثار من شخصيتي .

– لم أفهم !

– الفراش و اللباس و كل الأشياء القابلة للمس باستثناء الذهب و الفضة تتشرب جزءاً من شخصية مستعملها و قد تبقى حتى بعد موتها و تؤثر في لامسها الجديد .

- و ما نوع هذا التأثير ؟

- الأمر معقد ، ولكن إذا مثلاه سيصير بسيطا ، لنفترض أن شابا قدم من مكان محافظ و حل في مكان تتجول فيه النساء شبه عاريات فأطلق بصره ذات اليمين و ذات الشمال ، ثم جلس على مقعد معين و هو يشعر بشبق شديد ، لقد جعله شبقه الشديد لا ينتبه إلى التأثير الضئيل الذي خلفه من كان يجلس على المقعد قبله ، وبعد أن قام من على المقعد جلس شابة عليه و لأنها كانت خالية البال نسبيا فقد استطاع الأثر الذي خلفه الشاب الشبق على المقعد أن يثيرها و يجعلها تنظر إلى الرجال بشهوانية .

- إذا فهو تشرب للمشاعر .

- بل تشرب للحالات ، فالفتاة لم تشرب من المقعد شعور الشبق و لكنها تشربت حالة الشبق .

- يمكننا اعتبارها عدوى ، ومنه نستطيع أن نقول أن الكذاب قد يعييني بكذبه و المتكبر بكبره و الجبان بجبنه و أشباه ذالك إذا ما استعملت أنا و هم نفس الأشياء الملمسة .

- و لهذا يجب عليك أن لا تتشارك معهم الأشياء الحسية ما استطعت ، أما الآن فيجب عليك أن تستيقظ .

- لماذا ؟

- لأن العدو الغامض يتربص بك .

فتحت عيني فوجدت شخصا يقف بجانب السرير و ينظر إلي ، كان نحيفا و طويلا و وجهه شبه مستطيل تعلوه جبهة عريضة ، فمه ضيق و عيناه كبيرتان و غائرتان تحيط بهما هالة سوداء ظننتها في الوهلة إطارات نظارات .

يستحيل أن تُدفن الأسرار مع الجثث

كان ذلك هو لقائي الأول والأخير بمصطفى أمزار ، لم أنزعج لتواجده المريض داخل المحل دون استئذان ، لأنني استيقظت من غفوتي وذهني لا يزال يحاول استيعاب كلام صفية ، قعدت وقلت :

– هل اشتممت رائحة خطرٍ يا مصطفى ؟

– صحيح ، لقد شعرت بالضيق قبل ساعة تقريبا ، و كانت روحني أن تفارق جسدي بسبب شعور غريب لم أستطع أن أحده سببه .

– عليك الاستعداد لأنني أنوي التخلص منك .

– و هل تستطيع ؟

– أجل ، و أعتقد أنني لن أندم .

لوا عنقه باتجاه كتفه الأيسر بحركة شبيهة بحركة الربوت ثم قال :

– هل أفهم من كلامك أنك قاتل مأجور متقن لفن القتل بالرصاص الأسود ؟

لم أكن أعرف حينها ما هو فن القتل بالرصاص الأسود ، تجاهلت المصطلح وقلت :

– ليس بالضبط ؟

– و هل تفكّر بقتلي عن طريق استهداف جسدي يا مغفل ؟

– إذا كان قتل الأطفال قمة الوحشية فقتل قاتل الأطفال قمة الإنسانية و سأجد الطريقة المناسبة لفعل ذلك ، صدقني ؟

– أنت مبتدئ و انصياعك لسناء سيقودك إلى الموت ، لا بل قادك للموت .

نهضت من على السرير وجلست على كرسي السيد عبد القدس ، انكمأت إلى الخلف ومدت رجلي اليسرى ووضعت فوقها اليمنى وتمثلت بقول الشاعر :

و لست بنحويٍ يلوك لسانه

و لكن سلبيٍ أقول فأعرب

ثم قلت :

– و هذا هو الفرق بيني وبينك يا مصطفى فانت تترنن لتصبح محاربا أما أنا فقد ولدت محاربا ، واعلم أنني متى أضع العمامة يت弟兄 مصطفى أمزار ، وعندها لن يكون عندك الوقت الكافي لتعرفني .

تراجع إلى الخلف من غير أن يدبر ظهره لي و لما صار على عتبة الباب قال :

- لا أعرف سنك الحقيقي و من دون شك أنت أكبر مما تبدو عليه بكثير ، و كذلك فإني لا أجيد الكلام مثلك ، و لحسن الحظ أن الحرب تحتاج أفعالاً و ليس أقوالاً مجردة ، و بعد عشرين يوماً سنتيقن أنني صاحب أفعال بامتياز و ذلك عندما يتحول العرس إلى جنازة .

شعرت بغضب شديد و نظرت إليه على أنه أحقر مخلوق على وجه البسيطة ، و قلت في نفسي حسناً أفعال لا أقوال ، ثم أفردت أصبعي الوسطى عن باقي أصابع يدي اليمنى و أريته إياها ، ضرب درفة الباب المفتوحة بكف يده اليسرى فارتاج الباب بقوة ، مما جعل المارة ينظرون اتجاه المحل ثم هرول بعيد عن نظري .

هكذا غادر مصطفى أمزار مطلي إلى الأبد ، أغمضت عيني و قلت أخاطب نفسي بصوت مسموع ذبابة بغيةضة و طارت بعيداً ، سمعت السيد عبد القدس يهمس في أذني (الماء البارد) قفزت من على مقعدي و جلت ببصري في جميع أنحاء المحل لم يكن هناك أحد قلت :

- ماذا ؟

لا جواب ، رجعت و جلست على الكرسي و قلت مجدداً :

- أهذا أنت سيد عبد القدس ؟

لم يكن هناك غير الصمت ، بعد عدة محاولات غادرت المحل بعدما أحكمت إغلاقه ، سألني أحد الجيران هل اشتريت المحل من آل أمزار ؟ أخبرته أنني استأجرته و انوي أن أجعل منه ورقة ، أعجبته الفكرة لأنه كان يخشى أن يجاوره من يمتهن حرفة النجارة أو الحداد أو غيرها من الحرف التي تصدر ضجيجاً لا يطاق على حسب قوله .

أثناء العشاء اثنت عمتي على القرار الذي اتخذته في إنشاء مشروعِي الخاص في الحي الحسني لأنه يعتبر من الأماكن التي تمتاز برواج كبير بالبيضاء ، كما تحدثت عن حفل الزفاف و عن رغبتها في السفر إلى القرية قبل موعده بثلاثة أيام ، و أكدت لي أن مبارك سيلحق بها صبيحة يوم الحفل ، و فيما كانت تتكلم كنت أتساءل في قراره نفسي هل فعلاً سمعت السيد عبد القدس يقول (الماء البارد) أم أنها كانت مجرد تخيلات .

نمت تلك الليلة في الوقت المعتاد ، وبحلول الساعة الثانية صباحاً استيقظت مفروضاً ، فقد حلمت أنني أنا هو حسن الجوش و أنني استطعت بمساعدة ثلاثة من أصحابي أن أقنع سائحاً فرنسيًا مهتماً بالتراث المغربي القديم أن المدافع الأثرية الموضوعة على السور القديم لمدينة آسفي معروضة للبيع و أن السور بأكمله معرض مفتوح ، و بعنته ثلاثة من المدافع بمبلغ ثلاثة ألف دولار و أخذت منه مبلغ خمسة آلاف دولار عربون على أن يسلمني الباقى عندما نشحن المدفع على الشاحنة التي سيحضرها صبيحة اليوم التالى ، و بعد أن أحضر الشاحنة لم يجدنا هناك و علم أنه تعرض للاحتيال و أنه إذا ما حاول تحريك المدفع فسيتعرض للمحاسبة القانونية لأنها من التراث المسجل لدى اليونسكو .

جلست أنا و أصحابي في معمل قديم مهجور بجوار معمل سارديكس لتعليق السردين على الطريق المؤدية لبلدة الصويرية ، احتسينا الخمر و اختلفنا بنجاح عملية الاحتيال ، طلب مني الرفقاء تقسيم

الأموال ، أعطيت لكل واحد منهم مبلغ ألف دولار و احتفظت بألفي دولار ، طلبوها مني أن أخذ ألف دولار و أقسم الألف المتبقى بيننا بالتساوي ، رفضت لأنني صاحب الفكرة و منفذها الرئيسي ، فتطور الأمر إلى سباب و تهديد ثم و مع حالة السكر السائدة إلى جر و دفع و صفع و لكم ، ضربت أحد خصومي بقنية خمر فارغة على صدغه الأيسر فتثار الزجاج في كل مكان و سقط غريمي أرضا و ابتعد الآخران ، تناول أحدهما حgra بحجم كرة اليد بكلتا يديه و رمانى بها ، حاولت تفاديها بالاستدارة جانبها غير أنها أصابت خاصرتى ، حاولت أن أظل واقفا ، لم أستطع فاستلقىت على الأرض و أنا عاجز عن سماع ما يدور حولي و عاجز عن التنفس ثم بدأت تسري في جسدي البرودة و في محيطي الظلام ، فأدركت أنني أحيض .

بعد أن استيقظت تلمست أطرافي فوجتها باردة ، قلت هذا شيء و بقيت في فراشي إلى أن هدأت دقات قلبي ، ثم قمت مباشرة إلى المرحاض و أنا أردد الماء البارد ، الماء البارد ، نزعت ثيابي ، وجدت على جسمي كدمة سوداء تميل إلى الزرقة في نفس المكان الذي أصابني فيه الحجر في الحلم ، جلست محبثيا تحت الصنبور بعد أن فتحته على آخره ، ظالت على تلك الحال لمدة دققتين أو ثلاثة ، و لما هممت بارتداء ثيابي تفقدت الكدمة فوجتها قد اختفت و كانها كانت محض أوهام ، نمت بعد ذلك نوما هادئا و لم استيقظ إلا في حدود الساعة التاسعة صباحا ، تناولت فطورى على عجل و اتجهت إلى درب عمر لقاء السيد عبد المالك شرواط .

التقيت بعد ثمانية أشهر من ذلك الحلم بأشخاص من مدينة آسفى و أكدوا لي أنه بالفعل وقعت في مدينة آسفى جريمة قتل في شهر مايو الفائت كان ضحيتها شاب يدعى حسن الجوش ، وبتفاصيل متطابقة مع ما رأيته في الحلم .

يملك السيد عبد المالك شرواط محلات تجارية بدرس عمر يبيع فيه الأثواب بالجملة ، رحب بي و طلب من مساعدته إحضار الشاي و المكسرات ، أخبرته عن زيارتي للحسين شرواط في السجن و عن لقائي الأخير بمنير و ضحك لما قلت له أبو القرون ثم أخبرني أنه لما كان عمر منير أربع سنوات أحضر له لعبة على شكل رجل له رأس كبش بقرون كبيرة ، أخافته تلك اللعبة و ظل يبكي إلى أن أعادها عبد المالك معه فكان كلما زارهم يسأله منير عن أبي القرون فإذا قال له هل أحضره لك يقول لا .

قال أنه يصدقني من دون الحاجة إلى إثبات لأن أخيه السيد حسين أخبره عن زيارتي له في السجن وقد أثنى عليّ خيرا ، ثم أخبرني أن وصية أخيه هي سرد تاريخ الأسرة على منير باعتباره خليفة الحسين في منصبه كخادم آل مروانى ، و بما أن فرع آل مروانى انتهى منذ أن انشق السيد عبد القدوس عن العائلة الأصل فإن هذا التوريث لم يعد ضروريا .

و قد استطعت أن أستخلص من سرده المختصر أنه منذ أن وجد آل مروانى كفرع من شجرة قديمة جذورها تضرب عميقا في الأرض وجد معهم آل شرواط كخدم و أمناء ، و أن الخدمة تقتصر على الابن البكر الذي يتلقى كافة المعارف التي تؤهل له هذه الخدمة ، في حين ينصرف بقية الأبناء إلى شؤونهم الحياتية المختلفة ، و أن أبوهم كان في خدمة والد السيد عبد القدوس عبد المجيد المروانى و طامو المروانى اللذان كانوا أخوين توأم ، فالأسرة و إن كانت لا تبدُّ في ظاهرها مختلفة عن الأسر المغربية إلا أنها كانت تمارس شعائر و طقوس مختلفة تماماً تعنى عليه الناس . و أخبرني أنه يشترط في الخادم التكتم و الوفاء و أنه غالباً ما ينتهي نسل الخادم بانتهاء نسل الفرع الذي يخدمه ، و أن السيد الحسين كان سعيداً باشقاق السيد عبد القدوس عن الجذع الأصل .

ثم توقف فجأة عن الكلام و كأنه انتبه إلى أنه تكلم أكثر مما ينبغي ، قلت :

– هل تعرف لماذا قُتلت السيدة خديجة أمزار ؟

طلب من مساعدته الذي كان يجري بعض الحسابات بالقرب منا أن يعاون باقي المساعدين في التفاوض مع الزبناء ثم اقترب مني و قال :

– في زيارتي الأخيرة لأخي أخبرني أنه في الوقت الذي كان فيه في خدمة عبد المجيد المروانى كان يتلأم كثيرا عند معاينته و إشرافه على تلك الطقوس و الشعائر الملعونة ، و بعد أن مات العجوزين تغير الأمر تدريجيا مع السيد عبد القدوس و من دون مشاكل ، غير أن قتل السيدة خديجة بنفس الطريقة التي قتل بها أشرف الميلودي الذي ثبت تورطه في مقتل عبد المجيد و طاموا سبقى لغزا يتمنى إجابة عنه إلى آخر يوم في حياته .

قلت :

– و قد مات دون معرفة الإجابة ؟

قال :

– للأسف ، فسبب مقتل السيدة خديجة سر دفن مع السيد عبد القدوس ؟

قلت :

– يستحيل أن تُدفن الأسرار مع الجثث .

لا بأس أن تعلم أنها مخطوطة

طلب مني السيد عبد المالك أن أخبر منير بأنه مستعد لإعطائه كل ما يطلبه من أموال ، على شرط أن لا يتجاوز الطلب ثلث ممتلكاته .

استقلت خط النقل رقم عشرين الذي كان حينذاك تابعاً لشركة حافلات الراحة من درب عمر إلى الحي الحسني مباشرة ، اشتريت ساندوتش ومشروباً غازياً ، تناولتهم داخل المحل ، ثم جلست على كرسي السيد عبد القدس وشرعت في قراءة رائعة دي سان بيار « بول و فرجيني » بترجمة المنفلوطي إلى أن غلبني النوم ، سمعت صوتاً ينادي عليَّ دميان ثلاث مرات ، فتحت عيني ، وجدت مبارك يقف أمامي سأله :

– هل ندھت عليٰ و بمَاذا؟

– ندھت عليك شعيب مرتان و استيقظت عند الثالثة .

– ما الأمر؟

– هناك فتاة شقراء حسناء برفقة سائق سيارة أجراً أصرّاً على أن أدلهمها على مكانك .

– أين هما؟

– في الخارج .

خرجت إليهما وطلبت منها الدخول ففعلاً بعدها أعطى عثمان مبلغ مائتي درهم لمبارك كان قد اتفق معه عليها مسبقاً مقابل أن يصطحبهما إلى مكان تواجدي .

كانت ميكايلا شاحبة ومفروعة ، وكتأنها تترقب خطباً ما ، جلساً على سرير صفيحة ، أدرت الكرسي إلى أن صرت مقابلاً لها ونظرت إلى عثمان مستفهما ، فأخبرني أنه بعد أن افترقا ذلك اليوم عادت ميكايلا إلى غرفتها واستعملت الانترنت الخاصة بالفندق في الإطلاق على الأخبار المتعلقة بقلادة حمزة المعروضة للبيع ، و لأنها لم تضع رقم هاتف عندما عرضتها للبيع فقد وصلتها عدة رسائل على بريدها الإلكتروني كانت معظمها من أشخاص يطلبون معاينة القلادة للتأكد من أنها أصلية .

ومن بين تلك الرسائل كانت هناك واحدة غامضة كُتِبَ فيها (لقد حصلت على القلادة من دون عناء و مبلغ أربعين ألف دولار أكثر من جيد بالنسبة إليك يا آنسة ميكايلا) ، في اليوم التالي اتصلت بي وسألتني إن كانت لي علاقة بتلك الرسالة أجبتها بالنفي فلمحت إلى إمكانية تورطك أنت في المسألة ، أكدت لها بالإضافة إلى أنك لا تجيد الفرنسي يستحيل أن تقوم بتلك المزحة ، قامت بإلقاء عرض بيع القلادة و حذفت الإعلان ، وفي صباح هذا اليوم استيقظت عند الساعة السابعة صباحاً لتجد رجلاً أشقرًا ضخم الجسم يضع كفه اليمنى على فمه و يمسك كلتا يديها بيده اليسرى ، حاولت التفلت و الصراخ ، كانت قوته كبيرة و يستحيل أن تنتحج في التغلب عليه فأذعنـت و سكنت ، قال لها بالإنجليزية :

- القلادة في حقيقتك أليس كذلك ؟

أو مأت بالإيجاب .

- كان يجب عليك أن لا تعرضيها للبيع ما دمت تنوين الاحتفاظ بها ، و إن تابعت لعب الصبيان هذا فعلى الأرجح سينتهي بك الأمر جثة من دون رأس كما حصل مع حمزة المرواني و الآن أغمض عينيك و نامي ساعة أخرى و إياك أن تلجمي إلى الشرطة .

أغمضت عينيها و ظلت ترتعد لمدة ساعة أو تزيد ، ثم فتحت عينيها بحذر كان ذلك الشخص قد اخفي ، عاينت قفل الباب و جدته معلقا من الداخل و كذلك النافذة الوحيدة التي كانت بالغرفة و الغريب هو أنها وجدت القلادة لا تزال في حقيقتها ، اتصلت بي و طلبت مني توصيلها إلى القنصلية الكندية ، انتظرتها لحوالي ساعتين ، و بعد خروجها لاحظت أنها مرتبكة فسألتها عن الوجهة قالت: حي كولومبيا و في طريق أخبرتني أنها لما حكت للفنصل عن الحادث الذي وقع لها وعن التهديد الذي تلقته أجرى بضعة اتصالات ثم عاد ليستفسر منها عن مزيد من المعلومات ، إلى أن رن هاتف مكتبه ، رفع السماعة و ظل ينصت و ينظر إليها في نفس الوقت و قد تغيرت ملامحه ثم قال حاضر ، وأغلق الخط .

طلب منها أن تظل في مكتبه إلى أن تلقي بشخص سيحضر خصيصا من أجلها ، و تمنى لها أن لا تكون قد تورطت في أمر قد يسبب لها الأذى ، و ألغى جميع مواعيده ، بعد حوالي ساعة و نصف دخل مكتب الفنصل رجل شاب و امرأة في حوالي الخمسين من عمرها و طلبا من الفنصل أن يتركهم البعض الوقت قالت المرأة من دون أي مقدمات :

- آنسة ميكائيلا موران بما أن والدك طبيب نفسي مشهور في كندا فمن الجيد أنك لجأت إلى القنصلية ، لأننا في الوقت الراهن لا نحتاج إلى أي ضجة في كندا ، وأحب أن أعلمك أن الوقت الذي تقضيه معك الآن اقتطعناه من مهمات أكبر من مشكلاتك بكثير، لذلك أرجو منك أن تصدقني القول و تخبريني إذا ما كان حمزة المرواني أعطاك شيئا آخر غير القلادة .

أجبتها ميكائيلا بالنفي فسألتها إذا ما كان حمزة أخبرها عن ماهية تلك القلادة فأعادت نفس الجواب ، أنهت السيدة الزيارة على الفور عندما أكدت لميكائيلا أنه لا خوف على حياتها و أن الأمر له علاقة بتجارة الآثار في السوق السوداء ، و قبل أن يغادرا مكتب الفنصل قالت المرأة الخمسينية لميكائيلا :

- لقد أعلمنا أصدقائنا المغاربة أنك ستكونين بأمان إذا ما تعاونت مع شعيب مودود .

أنهى عثمان سرد الأحداث ، نظرت إلى ميكائيلا كانت مرغوبة و تنظر صوب درفة الباب المفتوحة ، طلبت من عثمان أن يخبرها أننا جمعنا نكره الموت ، ولكن ليس بوسع أي أحد هنا أن يؤجل موعده أو كيفيته ، سألني عثمان إذا ما كنت أستطيع المساعدة ، و ما معنى أن يذكر اسمي في القنصلية الكندية ، أخبرته أنني أستطيع المساعدة و لا علم لي بما حدث في القنصلية .

صرفت النجار الذي كنت قد حددت معه وقت العصر كموعد لإجراء القياسات اللازمة لإنشاء رفوف على جدران المحل فور وصوله ، ثم قلت لعثمان :

- تحتاج لهاتف .

قال :

– ميكايلا تملك واحداً فقالاً؟

أخرجته من حقيقتها ، كان من نوع سيمانس الباهظ الثمن حينها ، أمسكته و قلت :

– بعد عرضك القلادة للبيع سيكون من الصعب عليك الاحتفاظ بها ، و الحل الأمثل هو أن تبيعها بالثمن الذي تحدين .

قالت لعثمان بعد الترجمة :

– أخبره أني لا أهتم لا بالقلادة و لا بالمال ، و كل ما يهمني هو سلامتي .

بحثت بين الكتب عن رواية دميان ثم اتصلت بالرقم الذي سبق و أن دونته على غلافها و بعد أربع رنات فتح الخط و كان الجواب :

– سنعاود الاتصال بك سيد شعيب أبي الهاتف معك .

أغلق الخط ، صدمت لنطقه أسمى فالهاتف يخص ميكايلا ، حاولت إعادة الاتصال عدة مرات و لم أنجح لأن الخط كان مغلقا ، بعد نصف ساعة قضيناها في الترقب رن الهاتف ، فتحت الخط قلت :

– هل يمكنك أن تخبرني كيف عرفت أني المتصل؟

أجابني صوت مغایر للصوت الأول كان صوتا هادئا و متزنا ، قال :

– لأن الرقم الذي اتصلت به مخصص لك وحدك ، فأمام موظفنا ما يزيد عن مائة و سبعين خط ، نادراً ما يرن أحدها ، و اليوم رن الهاتف المخصص لشعيب مودود .

– و هل تعرف سبب اتصالي بكم؟

– إن لم تكن اتصلت بنا من أجل بيع المخطوطة فستكون في ورطة حقيقة .

– هذا ممتاز ، لم أكن أعلم أنها مخطوطة .

– لا بأس أن تعلم أنها مخطوطة و أنها تعود لشخص يعتبر من أوائل المتألقين من هاروت و ماروت .

– أعتذر يا سيد فأنا لا أفكّر ببيعها في الوقت الراهن .

– لقد أخطأت عندما اتصلت ما دمت لا تتوي البيع .

– لقد اتصلت و أنا أنوي البيع .

– هل تعرف ثمن المزاح معنا؟

– لا أعرف ثمنه ، و لا أعرف من أنت ، و اتصالي بكم كان من أجل بيع قلادة .

- انتظر لحظة .

قطع الخط و بعد دقيقة رن الهاتف مجددا .

- القلادة التي تخص آل مرواني صارت ملكا للأنسة ميكائيلا موران و لا تزال عندنا إشارة تؤكد أنها لا زالت في ملكيتها إلى هذه اللحظة .

- تماما ، وقد وكلتني ببيعها .

- نحن لا نقبل بالوكالة ، و لحسن حظك أنك مسجل عندنا من المالك من صنف جيم ، فاحرص على أن تكون حاضرة معك عند عملية البيع ، فأنت تعلم أنها يجب أن تكون بالقبول والإيجاب .

- و متى ذلك ؟

- بعد ست ساعات من الآن .

- الثمن ؟

- إنها ليست بالشيء الكبير ، و لو لا أنها تخص آل مرواني ما فكرت في شرائها لأنها من فئة حرف الفاء و هذا و ما دونه ليس من تخصصنا وإنما أمام موظفنا عشرات الآلاف من الهواتف .

- لقد عرضتها للبيع و حصلت على عروض جيدة ، أظنك تعلم ذلك .

- أجل أعلم ولقد أخبرناها أن أربعين ألف دولار ثمن مناسب .

- أحضر خمسين ألف .

- أربعين ألف وعشرون بعد ست ساعات .

- انتظر سأخبرك بالعنوان .

- لا داعي .

بعدما أقفلت الخط سألني عثمان إذا ما كانت في المسألة شبهة أو خطورة ، أخبرته أن القلادة باهظة الثمن لأنها أثرية ، وقد حصلت عليها ميكائيلا بطريقة شرعية و ستبعها بطريقة شرعية ، و لا داعي للخوف ، أما ميكائيلا فتفاجأت من ضخامة المبلغ و عدتنا عشرين في المائة إذا ما تمت الصفقة من دون مشاكل ، غادرنا المحل ثم عدنا إليه بعد أن تعشينا في مطعم بشارع أنفا ، كان عثمان مسرورا بالعشرة في المائة التي سيحصل عليها و خائفا في نفس الوقت لاعتقاده أن الأمر محفوف بالمخاطر ، أغلقنا علينا الباب و رحنا ننتظر .

قالت ميكائيلا :

- كان من الأفضل لو أنك تجيد الفرنسيبة يا شعيب .

قلت :

- بل كان من الأفضل لو أنك تتحدين العربية .

أحسست بعنجهيتها و تداركت :

- أليس الأمر جيدا بالنسبة لعثمان ، فهو يتحدث الفرنسية بالإضافة إلى العربية .

قلت :

- أن تهتمي بمنارتين في نفس الوقت أمر مضلل .

قال عثمان :

- بل سيكون أكثر أمانا .

قلت

- الأكثر أمانا هو أن تسترشد بأقربهما إليك .

وأصلنا الحديث إلى أن سمعنا طرقا خفيفا ، فتحث بحذر ، وجدت أمام المحل شابا أشقرًا طويلا القامة يرتدي معطفا طويلا ، يضع يده اليمنى في جيبه ويحمل حقيبة باليسرى ، قال بصوت هادئ و رزين :

- يسرني لفائقك سيد شعيب .

- ادخل من فضلك .

التفت إلى حيث كانت تقف سيارة رباعية الدفع من نوع جيب في الجهة الأخرى من الشارع و أشار إلى سائقها أن يوقف المحرك ، ثم ولج أمامي ، قلت :

- هذه ميكايلا مالكة القلادة ، يمكنك أن تتم الصفقة .

تحدث معها بالفرنسية وسألها إذا ما كانت تتوبي بيع القلادة بملء إرادتها قالت :

- أجل .

سلمها الحقيقة وطلب منها أن تعد المال ، رجوته أن يجلس ، نظر إلى كرسي السيد عبد القدس و قال :

- لم آتي من أجل الجلوس و لكن عرضا كهذا لا يمكن تفويته .

قلبت ميكايلا رزم المال ثم أخرجت القلادة من حقيبتها و أعطتها له . وضعها في جيب معطفه و أخرج هاتفا غريبا يشبه مرآة صغيرة ، أجرى مكالمة بلغة أجنبية من شكل الهاتف ، وقد أكد لي عثمان و ميكايلا فيما بعد أنهما لم يسمعها من قبل ، وبعد أن أغلق الخط قال :

- لقد تمت الصفقة ، طابت لي لكم .

قام من على مقعده و نظر نظرة مفاجئة صوب عثمان و كانه لم ينتبه إليه من قبل ، ابتسם بخبث و قال :

- عثمان الهاوري ، تشبه والدك كثيرا عندما كان شابا .

شخصت عينا عثمان و قال بهدوئه المعهود .

- هل تعرف والدي يا سيد ؟

- لقد عمل تحت رئاستي سبع سنوات قبل أن يتم تكليفه باختراق جماعة البر و الميزان .

تشنجت عضلات وجه عثمان و قال بصوت حاد و مرتفع لم أعهد منه من قبل :

- كم عمرك يا هذا ؟

قال الشاب من غير أن يغير نبرة صوته :

- لقد كان والدك دائما ما يقول من أراد السلامة في هذا العصر فيجب عليه أن لا يسأل الناس عن دينهم و لا عن أعمارهم .

جلس عثمان و كأنه تعرض للتذمّر و قد أخبرني بعد ذلك بأيام أن سبب ذهوله آنذاك هو أن الكلمات التي قالها الشاب بالفعل هي نصيحة والده المفضلة . طلب مني ذلك الشاب الغامض أن أشيشه و قال لي عندما كنا في الخارج :

- لا يزال موظفنا ينتظر رنين الهاتف المخصص لك .

- سأبيع لا محالة ، ولكن ليس الآن .

- هل تعرف أنك تملك أعظم شيء توارثه آل مرواني ؟

- وماذا عن القلادة ؟

- دورها يقتصر على الحماية من العقارب .

و أشار برأسه إلى شقة مصطفى أمزار .

عرض سينمائي أقيم من أجلها

أوصلنا ميكايلا إلى فندق ليالي غرناطة وأصرت على أن نلتقي صبيحة ذلك اليوم ، بعدها قام عثمان بتوصيلي إلى مشارف حي كولومبيا و في الطريق عرج على بيته و أودع فيه العشرة في المائة الخاصة به أما أنا فقد تركت نصبي في المحل . كان شارد البال طيلة الطريق ، في بادئ الأمر لم أعلم هل السبب هو الاثنين و الأربعون ألف دولار التي حصل عليها أم كلمات ذلك الشاب الأسطوري . استسلمت بعد أن فشلت في محاولتين لجره إلى الحديث ، ثم لزمنت الصمت إلى أن ودعته . بعد عشر ساعات وجدنا ميكايلا سبقتنا إلى المقهى ، كانت سعيدة بانتهاء محنتها و بالأموال التي حصلت عليها ، سألتني أكثر من مرة إذا ما كان حمزة يعلم ثمن تلك القلادة و تجاهلت سؤالها في جميع المرات لأنني لا أعرف الجواب و لم استطع تخمينه . أخبرتهما أنني سأقيم حفل زفافي بعد أسبوعين و وجهت لهما الدعوة فرحت ميكايلا و عزمت على تأجيل عودتها إلى كندا أسبوعا عن موعدها و ذلك من أجل حضور الحفل ، أما عثمان فقد اعتذر . لقد سرق ذلك الشاب بشاشته و ثقته بنفسه ، كانت لعثمان قاعدة صلبة ارتكز عليها طيلة حياته و فجأة حولها ذلك الشخص المجهول إلى حبات رماد و تركه واقفا على لا شيء ، و ستكون لي معه و مع أخيه رضوان حكايات في المحطة الثانية من رحلتي و أتعرف مسبقا أنهم كانوا من أ Nigel الناس الذين عرفتهم .

بوجود تلك الدولارات التي جعلتها في الصندوق الخشبي الذي كان يرتكز عليه كرسي السيد عبد القدس سرّعت من عملية تجهيز المحل ، اقتطعت منه غرفة خلفية جعلت مساحتها أربعة أمتار مربعة ، و فصلتها عن باقي المحل بجدار من الألمنيوم ، جعلت فيها الكرسي و السرير و الكتب التي أحضرتها من مكتبة المرواني ، و جهزت باقي المحل برفوف من الخشب الجيد و جعلت له واجهة من الألمنيوم و الزجاج السميك ثم أحضرت خططا و طلبت منه أن يكتب بالخط الديواني على اللافتة و على الزجاج الأمامي للمحل ورقة شعيب . وقد ثم ذلك كله في مدة اثنا عشرة يوما .

قبل حفل زفافي بخمسة أيام توجهت إلى منطقة المعاريف وسط البيضاء ، انتقى بذلة فاخرة من نوع لوبي فيتون كانت ضربة حظ دون علم مسبق بالموضة و علاماتها المميزة ، كانت عبارة عن سترة و سروال و حذاء كلهم باللون الأسود أما القميص فكان باللون الأحمر الداكن ، أثناء عملية التغليف طلبت من البائع إبعاد ربطة العنق التي كانت من ضمن الطاقم ، امتنى و هو يسأل و الارتياح بادئ عليه إذا ما كنت متأكد أنني أرغب فعلا في شراء تلك البذلة بمبلغ إحدى عشر ألف درهم ، أما المضحك في الأمر فهو تضمر حفيظة لما أخبرتها بثمن البذلة مع أنني أنكرت صفرا ، و اعتبرت شراء بذلة بمبلغ ألف و مائة درهم إسراف ليس في محله .

زارتنى سناء في تلك الفترة مرة واحدة و أخبرتنى أنها استأجرت شقة مفروشة في حي الولفة بثمن ألفى درهم شهريا ، قالت أنها لا ترغب في بيع شقتها بسبب ذكرى عادل و أنها قد تفعل إذا ما اضطررت إلى ذلك ، و أخبرتنى أن السيد خليفة أمرار يملك من المال ما يمكنه من شراء أفسخ الشقق لأنبائه لولا أنه يعاني من داء الشح ، أما فيما يخص مصطفى أمرار فلم أره منذ اليوم الذي توعدنى فيه و توعدته ، وقد لاحظت خلال تلك الفترة أنه كل يوم بحلول الساعة العاشرة صباحا تقدم امرأة شابة في حوالي الثلاثين من عمرها في سيارة أنيقة من نوع فيات و تصعد إلى شقة مصطفى و تظل إلى حدود الساعة

الثالثة أو الرابعة مساءاً ثم تغادر ، و كانت غالباً ما تخرج إلى طرف الشارع لاستقبال بعض الأشخاص كان من بينهم في بعض الأحيان أشخاص أجانب و كانت تقودهم إلى شقة مصطفى و تدوم زيارتهم نصف ساعة على الأكثر ، أما بحلول المغرب فقد كانت تتبع من شقة مصطفى رواح كريمه . أخبرني أحد الجيران أنهم قاموا بتقديم شكایة لدى السلطات غير أن شكایتهم لم تُحدث أي تغيير .

بعد الانتهاء من ترميم و تجهيز المحل و افتتاحي للبلدة لم يبقى أمامي أي عذر أقدمه لحفيظة بسبب تأخري عن العودة ، قررت أن أغادر بعد أن أتم قراءة رواية الفضيلة . الأدب الفرنسي ممتع و تمنى أثناء القراءة أن لا ينتهي الكتاب و عند الختم تنتهي المتعة و تنتهي معها علاقتك بالكتاب على عكس الأدب الإنجليزي فإنك تقرأ و تتفقد عدد الصفحات المتبقية التي لا تنتهي و بالختام تبدأ التساؤلات و تبدأ معها علاقتك بالكتاب ، و الأدب الألماني يشبه إلى حد ما الأدب الإنجليزي ، و فيما كانت تتوارد على هذه الخواطر همس السيد عبد القدوس في أذني «مياه سبعة آبار » قلت : أعرف أنك لست هنا ، ولكن هذا ما كنت أنتظره .

في قريتنا كان التحضير للعرس هو الشغل الشاغل لكل نسوة آل أشقر و آل مودود ، بدت حفيظة متضايقة و متوجهة ، ظننت أنها غاضبة بسبب غيابي الطويل ، حاولت التبرير ،أوضحت لي أن سبب فلقها يرجع إلى أنها أحست منذ حوالي الأسبوعين بأن حفل زفافها لن يمر على خير و ازداد الأمر سوءاً بقدومي ، طلبت من عزيز ابن خالتى فتحية تجهيز عربة الجر الخاصة به و حملت عليها برميلاً سعته مائتا لتر ، طفنا على القرى المجاورة و ملأناه بمياه سبعة آبار مختلفة منها ما يستعمل للري و منها ما يستعمل للشرب . ملأت منه سطلاً و طلبت من حفيظة أن تغسل به قالت بنبرة غاضبة لم تخاطبني بها من قبل :

– ليس الآن يا شعيب ، أنا مشغولة و الدار ممتلئة .

قالت :

– إما الآن و إما سأضطر للعودة إلى البيضاء حتى ينتهي العرس .

أخذت السطل و دخلت الحمام و هي تغمغم ، فيما كانت هي تغسل كنت أنا في غرفتي أمسك الأسطوانة و أسأله إذا ما كان الوقت مناسباً لفتحها خصوصاً أنني علمت أنها مخطوطة ، اقتحمت حفيظة الغرفة و كانت مبهجة ، اعتذرت عن فظاظتها و قالت :

– لقد كنت محقاً فبعد اغتسالي زال ذالك التوتر الذي كان يسبب لي القلق و أظنني مستعدة لمراسم الحفل .

قالت :

– وأظنني لست مستعداً لفتح هذا الشيء .

– ماذا ؟

– لا شيء .

حضرت عمتى نعيمة قبل ثلاثة أيام من موعد العرس و حضرت ميكايلا قبل يوم واحد ، كانت برفقة رضوان الأخ الأصغر لعثمان و الذي سيصبح زوجها فيما بعد ، قامت السيدة سميرة أية راوي بتزيين يدي حفيظة و رجليها بالحناء ثم قامت بنفس الأمر مع ميكايلا و رفضت تزيين باقي النساء و الفتيات مما اضطرهن إلا إحضار مزينة محترفة ، كما قامت في صبيحة يوم الحفل بالإلباب ميكايلا فقطانا مغربية جعلها تبدأ كبرت السلطان بطلة الحكايات التي كانت ترويها لنا الجدات . اغتسلت صبيحة يوم العرس من البرميل و ظلت في غرفة طيلة النصف الأول من اليوم و بحلول النصف الثاني بدأ الحفل و انتقل كل النسوة باستثناء المكلفات بالطبخ إلى الخيمة التي ثم بنائهما أمام بيتنا ، و بقيت أنا في البيت برفقة الرجال.

بسطت ميكايلا سلطان جمالها على جميع الحاضرين و سحرت جميع الشباب و خصوصا عماد و مروان فظلا يتربدان على الخيمة بين الفينة والأخرى ، و بحلول الثانية زوا لا أرسلت النسوة في طلبي لبست بدلتي الجديدة و انتقلت برفقة عبد الغني ابن عمي إلى الخيمة . مع دخولي سرت الوشوشة ، كانت البدلة رائعة لدرجة أنها جعلت حفيظة تشعر بالغيرة ، أمسكت بذراعي و حرصت ما أمكن أن لا أنظر صوب المكان الذي كانت تجلس فيه ميكايلا ، قبل أن نبدأ بالتقاط الصور سمعت صوت صافية يقول:

- لا تفعل .

التفت لأعرف مصدر الصوت ، لم أجده سوى قماش الخيمة ، قال المصوّر :

- أدر وجهك يا سيد شعيب .

قال المصوّر :

- لا تفعل .

رفعت يدي و أشرت إلى المصوّر بأن ينتظر ، همسَت في أذن حفيظة :

- أعتذر يا عزيزتي سأخرج الآن ، تلك النسوة اللواتي تحدقن بي جعلنني أشعر بالارتكاب.

بحلول العصر و قبيل انتهاء الحفل بساعة قام رضوان بإخراج ميكايلا من الخيمة و أمها عشرة دقائق لتغيير ملابسها و تستعد للعودة إلى البيضاء و ذلك لأنه لاحظ الشباب المخمورين يتحرشون بها ، فقد قام عماد باقتناه خمسة لترات من خمر محلية الصنع يسميهما المغاربة « الماحية » و احتساهما برفقة مروان و مبارك ابن عمتي و شابان آخران من القرية .

كان رضوان الهواري في الثلاثين من عمره ، ملامحه جادة و نظرته قاسية ، حائز على الحزام الأسود في الكراطي و شارك في عدة منافسات وطنية وقارية ، و لأنه لا يحب في هذه الدنيا إلا أنه و نادي الرجاء البيضاوي و لا يكره فيها إلا المخدرات و التتمر فقد غضب غضبا شديدا عندما حاول عماد التحدث مع ميكايلا بعد أن صعدت إلى السيارة فنزل و سدد إليه لكمه جعلته يتزاح بعيدا ، حاول شاب مخمور التدخل فكان نصيبيه ركلة جعلته ينام إلى ما بعد المغرب . أخذت شباب القرية الحمية و تسلحوا بالحجارة و أزمعوا على النيل من رضوان الذي ظل على حاله و لم يرمث له جفن رغم تحشدهم حوله ، حلث بينهم و بينه و قلت :

- عmad ابن عمي و رضوان ضيفي و إذا مسه أحد من خارج آل مودود بسوء فستكون مظلمة يصعب عليّ بلعها .

النف حولي إخوة حفيظة و أبناء خالاتي ففرق الشباب الغاضبين ، عاتب عبد الغني رضوان على تسرعه و اعتذر هذا الأخير منه و من عمي العربي و غادر مع ميكائيلا التي كانت تنظر لما يحدث بعيون تشع بريقا و كأنه عرض سينمائي أقيم من أجلها .

انتهى الحفل و بدأ الرجال بتفكيك الخيمة و ظننت أن الحفل انتهى على خير ، دوّت صيحة ثم ثانية ثم ثالثة ثم دخلت خالتى سمية و قالت : (مروان سينتحر) ثم سقطت مغماة عليها . خرج الكل مسرعين ، نظرت إلى حفيظة التي كانت مكسورة بسبب رفضي التقاط الصور معها كانت تبكي ، قالت :

- كنت أعلم أن الحفل لن يمر بسلام .

أخذت قنينة فارغة ، ملأتها من البرميل و خرجت على إثرهم . تسلق مرwan صهريج الماء الخاص بالقرية و ربط حبلًا بالقضيب المعدني الذي يشكل آخر درج و جعل في عنقه الطرف الآخر للحبل ثم جلس على حافة الصهريج و دلى قدميه للخارج . في الوقت الذي وصلت فيه كان عبد الغني مريوش زوج اختي يحاول إنقاعه بالنزول ، كان يصرخ و يهدد بأن يرتمي إذا ما حاول أحد الاقتراب منه . حاول عمي العربي الاقتراب منه و التحدث إليه ، رفض و بدًّ كأنه يستعد للقفز فتراجع عمي . أردت أن ألتف انتباهه إلى بطريقة مستفزة تجعله يصرف النظر عن الموت و لو بعد حين فخلعت سترتي و رميتها عن يميني نظر إلى الجميع و تعجبوا من فعلي الغير متوازن ، سرت نحوه بهدوء و لما أصبحت موازياً لعبد الغني طلبت منه التراجع ، قال مرwan :

- لماذا هناك يا شعيب ؟

- هل عزمت فعلاً على الانتحار أم أنها حركة من حركات الصبيانية ؟

- هذه المرة أنا جاد و لا تحاول منعه .

- لا ، لن أمنعك و كل ما أطلبه منك هو أن تشرب قبل أن تموت .

- جعلتك البذلة الأنique أحمقًا .

- لماذا ؟ فهدفي هو أن أؤدي لك خدمةأخيرة أتذكري بها . و سأفتخر في جنازتك و أردد على المشيعين أني سقينك يا مسكين قبل أن تهلك .

- و ما الفرق إن مت رويانا أو عطشانا ؟

- الفرق هو أن تلبـي لصديق طفولتك طلباً أخيراً .

ابتسم و تجشاً ثم قال :

- ناولني القنينة و إذا حاولت لعب دور البطولة سأركـلـك و أكون على إثرك .

صعدت السلام ببطء و ناولته القنينة و عدت إلى مكانـي ، أرادـت أمـي التـدخل فأمسـكـها والـدي و قال :

- دعي شعيب يتصرف .

نظر إلى القنينة بارتياح ولم يشرب ، قالت :

- ما بك ، هل تريد أن تنهي حياتك بإخلافك للوعد .

- سأشرب و من بعدها سأغادر الدنيا ما دمت عجزت عن مغادرة هذه القرية المنكوبة .

شرب قليلا و هم بوضع القنينة .

- أنت لم تشرب أنت مخادع .

شرب نصفها و رماها ، تقىأ و أزال الحبل من على عنقه و سحب رجليه ، أنزلناه بعد ذلك من دون مقاومة منه و كل ما قاله هو أنه يريد أن ينام ، في منزل خالتي تحدثت النسوة عن سوء الطالع الذي رافق العرس ، دخلت جارة لخالي و قالت :

- هل علمتن ؟ لقد تحول العرس الذي كان يقام في القرية المجاورة إلى جنازة .

الوقت هو أثمن شيء على هذه الأرض

يقيم معظم المغاربة أعراسهم في شهر يونيو و لذاك فقد أقيم حفل زفاف في قرية مجاورة لنا في نفس اليوم الذي كان فيه عرسي غير أن نهايته لم تكن سعيدة ، فقد أراد أحد المدعويين ركن سيارته في مكان ظليل فصدم جدارا سقط على بعض المدعويين و توفيت امرأة و كناتها .

بعد عشرين يوما عدت إلى الدار البيضاء ، اتجهت مباشرة إلى المحل و وضع الأسطوانة تحت الكرسي بجانب الدولارات ، بقيت هناك إلى ما بعد المغرب و لما انتهيت من إغلاق أبواب المحل استعدادا للمغادرة وجدت خلفي الكلب الأسود ينظر صوب بيت آل أمزار . كان أكثر ضخامة من المرة السابقة ، حاولت الاقتراب منه أكثر بغية التثبت من شكله فشعرت بالضيق و التعرق و آثرت الانسحاب . في الغد وبحلول الساعة الثامنة صباحا كنت في المحل و في التاسعة وعشرين دقيقة حضرت السيدة صاحبة السيارة الأنيقة و صعدت إلى شقة مصطفى ، بعد خمسة دقائق نزلت تجري و ركبت سيارتها و غادرت ، بعد خمسة عشرة دقيقة عادت برفقة الشرطة ، اجتمع الناس حول المنزل و تلقى بعضهم على سيارة الشرطة لينتشر خبر مفاده أن مصطفى أمزار وُجد ميتا داخل مرحاض شقته و الدماء تسيل من أنفه و أنفيه ، في الساعة الحادية عشرة صباحا حضر خليفة أمزار و رفض أن ينقل جثمان ابنه إلى المشرحة و استخدم نفوذه ليدفن مصطفى عند تمام الساعة الثالثة عصرا .

في اليوم التالي و فيما كنت أنزل المعدات التي اشتريتها من أجل الوراقة ، حضرت سناه ، لم تستطع إخفاء فرحتها بهلاك مصطفى ، قالت :

- يجب أن تخبرني كيف عرفت أنه سيلقى شر أفعاله من تلقاء نفسه ؟

- لم أكن أعرف ، ولكن التراث غالبا ما يأتي بنتائج محمودة .

- لقد أصاب عادل عندما قال أنك تتخذ قرارات عاقلة من دون تفكير .

زارني عثمان الهاوري في نفس اليوم وبقي معه لحوالي نصف ساعة ، قدم لي مجموعة نصائح كانت سببا مهما في نجاح مشروعه ، و منها تفادي شراء كتب الرابع السيئة الجودة و حتى على الإكثار من الطبعات الجيدة لمؤلفات أغاثا كريستي و نزار قباني و جورجي زيدان و كذلك كتب تعليم إعداد الحلويات ، و دلني على بعض العناوين المطلوبة في السوق بعينها منها الرحيق المختوم و لا تحزن و آداب الزفاف و تحفة العروس و رياض الصالحين و العبريات و كفاحي و قنديل أم هاشم والأجنحة المتكسرة كما نصحني بالمجموعة الكاملة للمكتبة الخضراء الخاصة بالأطفال و اقترح عليّ اقتناء آلة نسخ ثانية من باب الاحتياط .

على الرغم من حديثه الطويل معه إلا أنه كان لا يزال مختلفا عن عثمان الذي عرفته أول مرة ، أخبرني أنه أوصى ميكائيلا إلا المطار و طلبت منه قبل أن ترحل أن يبلغني أنها صارت تعلم أنها من الدهماء و قد قررت قرارا نهائيا أن تبقى منهم .

لم أعد أذهب إلى بيت عمتي منذ موت مصطفى و كنت أنام في الغرفة الخلفية للمحل . عرضت على مبارك أن يشتغل معي في الوراقة مقابل مبلغ ألفين و خمسمائة درهم شهرياً و ذلك بعد أن تيقنت من إقلاعه عن تدخين الحشيش ، و كان من الممنوع عليه دخول الغرفة الخلفية للمحل إلا بحضوري لأنني جعلت لها قفلة و احتفظت بالمفتاح في حين تشاركت معه مفاتيح الباب الخارجي للمحل ، و اشتريت هاتقا محمولاً من نوع إيركسون و نظراً لحجمه الكبير فقد كنت غالباً ما أتركه في الوراقة .

بعد موت مصطفى بحوالي أسبوع زرت خليفة أمزار في مكتبه لم يكن حزيناً لوفاة ابنه و اعتبر الأمر ضرورة منطقية لمصاورة فرع منشق ، سأله إذا ما كنت أحمل إليه خبراً ساراً فأوضحت له أن زيارتني جاءت وفاءً بالوعد الذي قطعه له سابقاً و ليس شيء آخر ، قال :

– بيدك فررت الاحتفاظ بالأسطوانة .

– لعاك تقصد المخطوطة .

– من أخبرك أنها مخطوطة ؟

– شخص عرف أنها صارت ملكي منذ أن أعطاها لي السيد عبد القدوس .

– ذاك فلاديمير و لن تناح لك رؤيته إلا إذا قررت بيعها .

– أظنك تقصد شخصاً آخر فالذي التقى به مغربي يتكلم العربية بطلاقة .

نظر إلى ستري و إلى قيصي و قال :

– إنه يتكلم معظم لغات العالم ، هل بعثه المخطوطة .

– لقد اشتري قلادة كانت لحمزة و أعطاها قبل موته لشابة كندية ساعدتها على بيعها .

ضرب سطح المكتب بكفه و قال :

– كنوز المرؤاني يتقاسمها الغرباء و لم يطلنا من مصايرتهم إلا الويل .

– هل سبق لك أن التقى بفلاديمير ؟

– لا و لكنني سمعت عنه الكثير ، يقولون أنه لا يهتم للمال و لا يتسامل في مسألة الوقت و يعتمد فلسفة في الحياة تقول الوقت هو أثمن شيء على هذه الأرض .

– هذه حكمة عظيمة .

لم يعجبه مدحي لفلاديمير فقال بعد الضحكة الساخرة :

– لقد أخبرني أحد معارفي أنه قبل تسع سنوات اتفق شخص من شنقيط الموريتانية مع فلاديمير على بيعه قارورة زجاجية تحتوي على ثلاثة شعرات توارثها أجداده مقابل مبلغ ثمانمائة ألف دولار ، و عند وقت التسلیم غالب الطمع على الموريتاني و رفض تسليم القارورة ما لم

يرفع الثمن إلى مليون دولار ترك فلاديمير له الثمانمائة ألف دولار و قال له سأحضر لك الباقي و اعلم أنك ارتكبت خطئاً قاتلاً ، بعد ست ساعات شب النار في بيت الموريتاني ولم ينج من الحريق إلا زوجته وأحد أبنائه و مات الآخرون و احترقت معهم الدولارات و القارورة .

- و هل يعمل فلاديمير هذا لحسابه الخاص ؟

- هناك من يقول أن له احتكاكاً مباشراً بأسيد روما ، و هناك من يقول أنه واحد منهم و لكنه أشك في ذلك فالوصفات التي تروى عن الأسياد مخالفة تماماً عن وصفات فلاديمير ، كما أنه لم يثبت عن الأسياد مغادرتهم لروما في يوم من الأيام باستثناء تلك الحلقة التي تم إرسالها في بدايات القرن الماضي إلى نيويورك .

- إذا ففلاديمير هذا لا يملك وقتاً للدردشة أو الزيارات الفارغة .

- هكذا هو حال رجال الظل .

همست صافية في أذني :

- إنهم لا يملكون ظلاً في الأساس .

قالت :

- ماذا ؟

قال :

- قلت لك هذا هو حال رجال الظل .

- إنهم لا يملكون ظلاً في الأساس .

شبك بين أصابعه و نظر إلى نظرة عميقة ثم صرف بصره عني و قال :

- و لأنهم لا يملكون ظلاً فإنهم يشتغلون في الظل حتى لا تكشف الشمس حقيقة انتقادهم للظل .

في زيارتي التالية للقرية سعيت إلى لقاء محمد أشقيير و سألته عن وصف الشاب الذي زاره في المكتب ، فكانت الأوصاف التي نطق بها مطابقة لأوصاف الشخص الذي التقى به ، سألته إذا ما كان لاحظ شيئاً مريباً أثناء تلك الزيارة ، أخبرني أنه أثناء الحديث معه أحس بوجود شخص ثالث يقف خلفه و لكنه لم يجرأ على الالتفات إلا بعد أن غادر الشاب ، و لما التفت لم يجد أي شخص و أضاف أنها كانت مجرد أوهام .

سافرت بعدها إلى مدينة الجديدة و اتجهت إلى مقر العمالة و طلبت لقاء السيد العامل ، اعتذررت السكرتيرة لكثره أشغال العامل و طلبت مني المحاولة في يوم آخر أو لقاء الكاتب العام إذا كانت هناك ضرورة ، قلت لها :

- أعدك أن أنصرف بعد أن تبلغني السيد العامل أن هناك شخصاً التقى بفلاديمير قبل بضعة أسبوع يود التحدث معه .

نظرت إلي باستهجان و قالت :

- السيد العامل مشغول و أنت تضيع وقتي .

- وعدتك بأن انصرف فور خروجك من مكتبه و أنت من تضيعين الوقت .

نهضت متحالمة و دخلت مكتب العامل دون استئذان و خرجت بعد أقل من دقيقة هممت بالمغادرة فور خروجها فقالت :

- انتظر يا سيد .

- هل أدخل ؟

- لا ، السيد العامل طلب منك أن تتنظره عند البوابة الخارجية و سيمر ليصطحبك بعد خمسة دقائق .

بعد خمسة عشرة دقيقة كنت أجلس برفقة عامل الجديدة السيد عبد العزيز درواس في مقهى قريب من المكان الذي يقام فيه موسم مولاي عبد الله سلاني عن اسمي فقلت شعيب .

- أنت أحمق يا شعيب .

- هل أزعجك نطقي اسم فلاديمير ؟

- أجل ، و يشبه إلى حد ما شخصاً دخل المقر المركزي للكي جي بي و قال لأحد الموظفين أخبر رئيسك أنني التقى قبل قليل بالشيخ أيمن الظواهري .

- لا بأس بصفة الحمق لأنها في بعض الأحيان تصير مرادفاً للشجاعة .

- و أين الشجاعة يا فتى في ذكرك الشخص يعتبر من أبطأ الكيان العميق في مكان عمومي ؟

- و لماذا هذا الرعب المبالغ فيه يا سيد العامل أليس فلاديمير صديقك ؟

- داخل الهرم لا توجد صدقة ، توجد أوامر و تعليمات .

- و من يصدر هذه الأوامر ؟

- اسأل من في القمة ألم تقل أنك التقى فلاديمير ؟

- هذا صحيح ، فقد أبرمت معه صفقة و تمت من دون مشاكل .

- أنت شعيب مودود صهر ذالك الموظف ؟

- أجل .

- هل يمكنك أن توضح سبب زيارتك لي ؟

- أريد أن أستشيرك في أمر . لا يزال عندي شيء آخر يرحب فلاديمير في شرائه وأود أن أتصل به لأعرف الثمن فإن أعجبني بعث و إن لم يعجبني رفضت البيع .

- و هل تدعني إذا ما قدمت لك النصح أن لا تعود لزيارة ؟

- أعدك .

- لا تتصل به إلا بعد أن تقرر البيع و لا تنطق باسمه ثانية .

لم يكن هدفي من زيارة الجديدة طلب النصح كما أفصحت ، وإنما كان هدفي تحصيل بعض المعلومات ، وقد نجحت في ذالك لأنني تيقنت أن اسم الشاب فلاديمير وأنه لا يعمل لحسابه الخاص وأنه يحتل مكانة عالية داخل الهرم .

بعدها عدت إلى البيضاء ، و جئت مبارك مرهاقا سأله :

- هل هناك خطب ما ؟

- ألم تعلم بالمصيبة التي وقعت في حي كولومبيا ؟

- أي مصيبة ؟

أخبرني أنه قبل يومين و في مساء يوم السبت على وجه التحديد ، و في الوقت الذي كانت تقام فيه مباراة الدربي بين الرجاء و الوداد البيضاويين و فيما كان معظم شباب الحي محشدين داخل مقهى كاسترو لمتابعة المباراة ، تسلل أحمد القط إلى داخل المقهى و أشار إلى كل من انتهى إليه بأن يلزم الصمت ، و لما حدد مكان جلوس أفراد من آل بركي سحب سكينين و انقض عليهم ، سادت الفوضى في المقهى و فر الجميع باستثناء سفيان البركي و المحجوب البركي اللذان كانوا جثتين هامدين ، ظل أحمد يطوف في أزقة كولومبيا و يبحث عن أفراد آخرين من آل بركي و يصرخ كالملجنون ، حاول الساكنة إسقاطه أرضا برميه بالحجارة أو بواسطة عصي طويلة و لكنهم فشلوا و كادت محاولاته في بعض الأحيان أن تسفر عن جريمة قتل ثالثة ، و لم يتوقف الأمر إلا حين قدمت الشرطة و أطلقت الرصاص على قدميه . قلت لمبارك :

- ألم يتحدث الناس على أن أحمد هاجر إلى إسبانيا ؟

- هذا ما ظنه الجميع ، ولكن في الحقيقة كان مختبئا في منطقة بوسكورة يتحين الوقت المناسب لينفذ انتقامه .

- إنها جريمة و ليست انتقاما .

أخبرني مبارك أن جميع عائلة البركي غادروا الحي لأنهم يخشون عملا مماثلا من منير ، و خصوصا أنه هناك من أبصره يتجرأ في الحي ليلا ، و أن الشرطة تسعى جاهدة لتحديد المكان الذي يتواجد به .

كان هذا آخر حدث رئيسي يقع في حي كولومبيا خلال محطتي الأولى ، حُكم على أحمد بالسجن المؤبد ، و قُتِلَ في سجن العاذر بعد ذلك بخمس سنوات بسبب تصفيه الحسابات بين السجناء .

بل الإغراق المعلوماتي

في السادس والعشرين من عشت سالت عن السيد بوفلاح في مكتبه ، أبلغني نائبه أنه استقال من منصبه فور قدومه من فرنسا ، سأله عن عنوان سكنه فأخبرني أن لا فائدة من زيارة بيته لأنه حاول قبلي وأخبرته زوجة السيد عمر أنه يقضي فترة القاهرة في منزل والده القديم الذي يقع في بلدة بنوار على بعد بضعة كيلومترات من مدينة خريبكة .

اتجهت بعدها إلى شارع غاندي حيث كان يقطن ياسين العيدوس في الطابق الرابع من إقامة الياسمين ، سألني البواب عن وجهتي بأدب ولباقة و لما أخبرته أنني أتمنى لقاء ياسين العيدوس اعتذر عن تطفله و قام باستدعاء المصعد . كانت شقته فاخرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، كانت مساحتها تقارب المائة متر ، ومع ذلك فإنها لم تكن تحوي غير غرفة واحدة و حمام و مطبخ صغير ، أما باقي الشقة فكان عبارة عن بهو كبير ثم فرشه باثاث مختلف من ركن لآخر ، منه ما هو عصري و منه ما هو تقليدي .

أخبرني أنه كان يقرأ رواية مائة عام من العزلة قبل أن أطرق عليه الباب ، و أنه قرأها قبل ذلك مرتين ، و ذلك بسبب حبه للارتباك الذي تسببه له قراءتها ، لأنه يجعله يسافر بعيداً عن الواقع و أن تأثيره يدوم لأيام ، انتبه إلى أنني لم أستوعب كلامه فقال :

– إذا كنت في عزلة و قرأت مائة عام من العزلة فلن على يقين أن تفكيرك سيحتاج إلى ثلاثة أيام على الأقل حتى يستقيم مجدداً ، و ذلك هو الارتباك الذي قصدته .

– هل تقصد بالإرباك كثافة الأحداث التي لا تترك للقارئ فرصة لاستریح ذهنياً أو يشد فلياً أثناء القراءة ؟

– بل الإغراق المعلوماتي الذي يجعلك إما أن تعتقد أن جميع الأحداث التي في الرواية خيالية و يستحيل حدوثها أو أنها واقعية و يمكن حدوثها ، و إما أن تدخل في حالة إرباك شديدة لنفصل الخيالي عن الواقعي .

– يا سيد ياسين إن نظرتك للرواية فريدة و سأسقطها من اليوم فصاعداً على كل ما يصدر من الصحفة الحكومية .

ضحك و سألني إذا ما كنت أتمنى لقاء عمر بوفلاح ، أجبته بالإيجاب فطلب مني أن أتمهل لبعض الوقت لأن السيد عمر عاد من فرنسا مختلها تماماً ، فقد التقى هناك بالسيد ديفيد برين لمدة ساعة واحدة و كان ذلك في الحادي من غشت ، و استطاع أن يقنعه بأن يبحث عن السكون . و قد زار ياسين بُعيد قدومه و تحدث معه طويلاً عن التقسيم الخاطئ حسب قوله الذي نعتمده حين نقسم الأشياء إلى مادي و معنوي ، لأن هذا التقسيم يحمل تلبيساً متعمداً هدفه إخفاء التقسيم الحقيقي للأشياء و هو تقسيمها إلى متحرك و ساكن ، وكل شيء مادي في الحقيقة هو متحرك و هذا يشمل حديثنا عن صخرة مثلاً ، فهي متحركة لأنها انتقلت من الأمس إلى اليوم و ستنتقل من اليوم إلى الغد و هذا التحرك الزمني يجعل جزئياتها تتحرك مكانياً . و هكذا وكل ما ينتقل في الزمان و المكان المتداخلين أصلاً فهو متحرك و كل

مخلوق سلم من تأثير الزمان و المكان فهو ساكن ، و الشعور بالخوف حسب التقسيم الخاطئ يعتبر شيئاً معنوياً لأنه غير محسوس أو ملموس ، أما في التقسيم الثاني فهو يعتبر حركة لأنه ابتدأ في نقطة زمنية و انتهى عند أخرى و لأنه ينتقل مكانياً إلى الشخص الذي بجانبك فيشعر هو الآخر بالخوف ، و قد ينتقل إلى كلب يبعد عنك عشرات الأمتار و يجعله ينبع عليك و يحاول عضك ، و كذلك شعورك بالأمان قد يجعل كل المحيطين بك يشعرون بالأمان ، و لهذا السبب قتلت القبيلة اليمنية المشهورة بالشجاعة ذلك الفرد منها الذي عرف بالجبن مخافة أن ينتقل الجبن إلى باقي أفراد القبيلة ، و بحسب هذا التقسيم فالأسأل في الأشياء هي الحركة أما السكون فهو نادر و النادر لا حكم له ، و إذا أردنا الجمع بين التقسيمين فإنه يمكننا أن نقول أنه في هذه الدنيا كل شيء مادي و لا يصح لنا أن نصف الحزن مثلاً على أنه معنوي و ذلك لأنه بين نقطتين زمنيتين و لا يصح لنا أن نصف النزرة التي نطلقها بأنها معنوية بل هي مادية متحركة و موجودة ، و لو تيسرت لنا الآليات المناسبة لاستطعنا إمساكها كما أمسكنا بالصوت و جعلناه في الأشرطة و أذعناه عبر المذيع .

خلاصة الفكرة التي جاء بها السيد بوفلاح من فرنسا بعد لقائه للسيد ديفيد برين تمحور على أن جميع الأشياء التي يحكمها الزمان و المكان متحركة و وبالتالي فهي مادية ، و عدم قدرتنا على لمسها أو تحسسها هو نتيجة لعجزنا و ليس لكونها لها معنى و غير موجودة بل إنها لها معنى و موجودة ، و لها أجسام لا نستطيع إحاطتها بحواسنا القاصرة و بسبب جهل بعض علماء الدين بهذه الحقيقة البسيطة فقد دخلوا في تفريعات و تأويلات أضاعت الكثير من الجهد و الوقت ، فعلى سبيل المثال لا الحصر قالوا أن الميزان الذي يزن الله به الأعمال غداً يوم القيمة هو ميزان حسي أي مادي فكيف يمكن أن توزن به الأعمال والأقوال و هي أشياء معنوية ، فبدأت الشطحات و النطحات و كل أدلى بذله فمنهم من أصاب سعيداً و منهم من اقترب من إصابة سعد ، و السبب هو تأويلهم للأدلة و رفضهم التوقف أمام صريح اللغة و الأخذ بظاهر النصوص و الاستثنas بفقه الواقع .

ولما اعتقاد السيد بوفلاح بإمكانية الحصول على لحظات من السكون في وسط عالم يحكمها مبدأ الحركة فقد جعل من بيت والده معتكفاً و لم يحدد مدة لزمن اعتكافه . و قد كان بقناعاته الجديدة من الأشخاص الذين استفادت منهم كثيراً خلال عبوره بالمحطة الثانية من رحلتي القصيرة ، رحلة الصدام مع الشيطان .

انتهى ياسين من سرد تفاصيل حديثه المطول مع بوفلاح ، قلت :

– غريب أمر السيد بوفلاح ، كيف جعلته جلسة ساعة واحدة يتخلى عن قناعاته السابقة و عن منصبه ؟

مسح ياسين على رأسه بيده اليمني جيئه و ذهاباً ثم قال :

– في إسبانيا كانت هناك حانة تسمى حانة الوهراني كان جل روادها من العرب المهاجرين ، في أحد المرات دخل الحانة ثلاثة من الشباب الإسبانيين ، و بعد أن سكرروا قام واحد منهم اسمه فرناندو و شرع يستفز العرب ، وقف على كرسي وقال لقد غيرت اسمي من فرناندو إلى إسرائيل و من اليوم فصاعداً أريد من الجميع أن ينادوني بالسيد إسرائيل ، و بدأ يطوف على العرب الحاضرين و يطلب منهم أن يندهوا عليه باسمه الجديد وأصحابه يقهقرون ، في ذلك الوقت لم يكن يهمني إذا ما احتل اليهود فلسطين أو العالم العربي بأسره ، و لكن احتقاره و استضعافه لهؤلاء العرب

المتواجدين بالحانة و أنا من بينهم جعلني أشعر بالحمية ، فأخذت قبينة كحول زجاجية و وضعتها خلسة تحت المائدة بالقرب من قدمي و انتظرت إلى أن اقترب مني و قال أنت يا مورو ناديني إسرائيل قلت إذا نديتني بالاسم الذي يروق لي سأناديك إسرائيل اقترب مني بطريقة تحمل في طياتها تهديدا و قال وما الاسم الذي يروقك ، أمسكت الفنية و قلت الاسم الذي يروق لي هو الموت لإسرائيل و ضربته على رأسه فترنح و سقط ، هجم علي صاحبه و بدأت أصارع أحدهما و أتفادى ضربات الآخر إلى أن تدخل شاب في العشرينات من عمره و ضرب الشخص الثاني بكرسي فأفقده الوعي .

قالت :

– لن تخلو أماكن تجمعات العرب من أهل النجادات .

– هل تعرف من كان ذاك الشاب الذي تدخل لنجذتي ؟

– ومن أين لي أن أعرف ؟

– عمر بوفلاح ، و كان حينها سائحا و لم يكن مهاجرا .

– إذا فأنت من عرف بوفلاح على السيد المرواني .

– أجل ، وبعد أن عدت من أمريكا سعيت إلى استعادة توازني النفسي ، و كان للسيد عمر فضل كبير في ذلك .

– لقد ذكرت في ذلك اليوم أن السيد عبد القدوس طلب منك طلبا غريبا .

– هل تريد معرفته ؟

– الأمر عائد لك .

– إذا كنت ستحرص على أن لا يصل ما سأقوله لك إلى أسماع السيد عمر فلا مانع عندي من إخبارك .

– و لماذا السيد عمر على وجه التعيين ؟

– كنت قطعت له وعدا بأن لا أقتل مجددا .

– أفهم من كلامك أن السيد عبد القدوس طلب منك القتل و نفذت .

– طلب مني قتل رجل عجوز يسكن في كوخ صغير يقع على مشارف مدينة الصويرة ، وقد قتله مرتين .

– كيف ذلك ؟

– خفتة في المرة الأولى حتى لفظ أنفاسه ، ثم جلست بالقرب من الجثة كما أمرني السيد عبد القدوس ، و بعد ربع ساعة خرج من جثته شاب أسود أشعث عاري الجسم و حاول الفرار فلحقت

به و تصارعت معه ، كانت قوته أضعف قوتي و لكنني تمكنت من قتله بفضل الخنجر الذي أعطانيه السيد عبد القدوس .

لم يعرف ياسين العيدوس من ذالك العجوز الذي قتله ولا لماذا أمر السيد عبد القدوس بقتله ، أما أنا فقد عرفت جواب تلك الأسئلة بعد ذالك بسنين.

بحلول الموسم الدراسي الجديد شغلت في الوراقة بسبب الرواج الكبير و عجز مبارك عن خدمة الزبائن بمفرده ، و استمر الأمر على ذالك الزخم طيلة شهر غشت الذي لم أتعجب فيه عن الوراقة إلا ثلاثة أيام اليوم الذي زرت فيه ياسين العيدوس و يومين قضيتهما في القرية ، و كذلك الأمر في شهر سبتمبر بأكمله و بحلول أكتوبر بدأ الرواج يخف .

بذور فرنسا

في الثاني من شهر أكتوبر لتلك السنة قمت بطلاء الواجهة الخارجية لأبواب المحليين التجاريين اللذين كان في ملكية مصطفى بنفس لون باب الورقة . وبحلول الساعة الواحدة ظهرا نفذ مني الطلاء قبل أن أتم طلاء الأبواب ، ولأن بائع مواد البناء الأقرب إلى أغلق إلى ما بعد فترة الغداء فقد قمت باستعارة دراجة مبارك النارية التي كانت من نوع بيجو مائة و ثلاثة ، وتوجهت إلى شارع أنفا من أجل شراء حاجتي من الطلاء .

في شارع أنفا و على مقربة من أسيما خرجت سيارة صغيرة من نوع هيونداي من طريق فرعية و دخلت إلى الشارع من دون أي إشارة مسبقة ، حاولت تفادي الاصطدام بها ما أمكن و فشلت نظرا لسرعةتها فقدتني أنا والدراجة لمسافة ثلاثة أمتار ، ارتمت نعلى البلاستيكية بعيدا ، قمت و أنا حافي القدمين لأجد الدراجة قد تحولت إلى خردة . جلست على الرصيف ، واقترب مني شرطي مرور كان يقف على الدوار الذي يفصل شارع أنفا عن شارع المطار و طلب مني أن أظل جالسا ، نظرت إلى السيارة التي صدمتني كانت سائقتها شابة في حوالي الثالثة والعشرين من عمرها ، نزلت و تفتقن صباح سيارتها الأمامي المكسور و الانبعاج المحيط به ، سبت و لعنت بالفرنسية ، نهضت و اقتربت منها و قالت :

ـ إنه خطأك و لكن لا بأس ما دمت أني سالما .

نظرت إلى قدمي الحافيتين و إلى أثار الطلاء على ملابسي و على أطرافي ثم قالت :

ـ لن أكلمك سيحضر بابا ليكلمك .

و صعدت إلى سيارتها و أجرت مكالمة هاتفية ثم أشعلت سيجارة و شغلت موسيقى غربية ، اقترب الشرطي من نافذة سيارتها المغلقة و طلب منها أن تفتح ، أنزلت بضعة سنتيمترات من الزجاج ، قال :

ـ من الأفضل لك أن تُسوّي الأمر معه خارج نطاق القانون .

و لأن صوت الموسيقى كان مرتفعا فقد قالت بصوت عال :

ـ علمني والدي أن لا أكلم الرعاع .

التفت إلى الشرطي و أشار إلى بأن لا أبرح مكاني ثم شرع في تنظيم حركة السير التي تعطلت بسبب الحادث . بعد نصف ساعة حضر والدها في نفس الوقت الذي أشعلت فيه سيجارة جديدة فطلت تكلمه و يكلمها و هي تتفتح الدخان بالقرب من كتفه ، قال الشرطي الذي كان يقف بالقرب مني :

ـ لا تعجب يا ولدي إنهم الطبقة المترفة .

همست صافية :

ـ إنهم بذور فرنسا .

لم ألتقي لأبحث عن مصدر الصوت لأنني كنت متبقناً أنني لن أجدها ، و كل ما سأفعله هو إثارة ريبة الشرطي المتعاطف معي ، قلت :

– هذا صحيح ؟

قال الشرطي :

– اهتموا بالحرية الشخصية و نسوا أشياء أخرى أهم .

قالت صفيحة :

– بل إنهم تسللوا بعبودية الغرب فنسوا أنفسهم .

قالت :

– تماماً .

قال الشرطي :

– لقد فرطوا في تقاليدنا و عاداتنا .

قالت صفيحة :

– لقد فقدوا الهوية فلا المغاربة يعتبرونهم من أبناء الشعب و لا الغربيون يقللون بهم كأناس مساوين لهم حتى و إن لبسوا مثلهم و أكلوا مثلهم و تحرروا من الأخلاق مثلهم .

قالت :

– إنها مصيبة .

تقدم نحوي والد الفتاة و أخرج من الجيب الداخلي لستنته ورقة نقدية من فئة مائة درهم و رماها في وجهي ثم قال بالفرنسية .

– خذها و انصرف .

تأملته جيداً و تمنيت لو أنني أستطيع استكشاف السبب الذي يجعله يحس بكل هذا الاستعلاء ، التفت إلى الشرطي و قلت :

– إنني مصاب استدعى سيارة الإسعاف .

ابعداً مني و تحدثاً بضعة كلمات ثم أخرج والد الفتاة هاتفاً نقالاً و ضغط على بضعة أزرار ، بعد عشرة دقائق حضرت سيارة شرطة و نزل منها شرطي برتبة ضابط و صاحف والد الفتاة ، قالت صفيحة :

– إنه طاهر بيرون ضابط فاسد و قد ثُمّ نقله من الحسيمة إلى البيضاء كعقوبة له على عدة تجاوزات قام بها .

قلت :

- جيد .

قالت :

- قبل بضعة ساعات كادت سيارة أجرة أن تصدم ابنه الوحيد بلال .

اقرب مني الضابط برفقة والد الفتاة و قال :

- انهض .

- لا أستطيع النهوض فأنا مصاب و أحتج إلى سيارة إسعاف .

- إذا استمررت في تظاهرك بالإصابة فسنحملك على متن سيارة شرطة و ليس سيارة إسعاف .

- إلزم صلاحياتك يا حضرة الضابط فأنت لست طبيب حتى تجزم بأنني أتظاهر.

بسط يده لوالد الفتاة ، أعطاه بضعة أوراق نقدية ، أمسكها و لوح بها أمام أنفي ثم قال :

- هذه ألف درهم لو طلبت جميع جدران حيكم ما كسبتها ، ضعها في جيبك و خذ دراجتك و انصرف فانت تعرقل حركة السير .

- هل كنت ستقبل بها إذا كان المصاب هو ابنك ؟

تغيرت ملامحه بفعل الغضب و قال :

- أنا ليس لي أبناء يا كلب .

- ستعلم من الكلب و لكن بعد أن تسأل عن سيارة الأجرة التي كادت تصدم بلال صبيحة هذا اليوم .

صرخ في وجهي :

- من بلال ؟

قلت بصوت عال و نبرة حادة :

- بلال ابنك الوحيد يا سيد طاهر .

اتجه صوب السيارة التي نزل منها و هرول والد الفتاة خلفه و بعد دقيقة عادا بنفس الطريقة التي ذهبا بها الأول يحث الخطى و الثاني يهرول خلفه ، قال الضابط :

- من أنت ؟

- هل علمت من الكلب؟

- ماذا تقصد؟

- سترعف قصدي بعد أن يرمي بك من البيضاء إلى سمارة كما رمي بك من قبل من الحسية إلى البيضاء.

ارتعدت شفتاه و ظهر عليه الارتكاك لأول مرة ، التفت إلى شرطين دراجين التحقا بالموقع مؤخرا و قال لهما :

- استدعوا سيارة إسعاف و قوموا بالإجراءات القانونية .

سعى والد الفتاة ليكلمه فنهره و طلب منه أن يقف بعيدا ، في المستشفى أخبرت الطبيب أنني لا أستطيع السماع بأذني اليمنى و أنني أجد صعوبة في التنفس ، أجرى على بعض الفحوصات و أعطاني ظرفا يحمل توصية و طلب مني زيارة مصحة خاصة بعينها ، و حرر لي شهادة طبية تثبت عجزي عن مزاولة أي عمل لمدة ثلاثة أشهر .

كاد مبارك يبكي حين عاين دراجته النارية ، غير أن مبلغ الألفي درهم الذي أعطيته له من أجل إصلاحها جبر خاطره و جعله يردد مرارا :

- ما دمت أنت سالما فلتذهب الدراجة بغير رجعة .

بعد خمسة أيام من الحادث لبست بدلة الأحد عشرة ألف درهم بعدما وضعت في جيب السترة الداخلي مبلغ أربعين ألف درهم ثم استقلت تاكسي و توجهت إلى المحكمة الابتدائية التابعة لنيابة الفدا مرس السلطان ، جلست في قاعة خاصة بالانتظار بالقرب من امرأة عجوز و ابنها ، بعد خمسة دقائق جاءت الشابة التي صدمتني ، كانت برفقة والدتها ، لم أستطع أن أحدد أيهما كانت تبدأ أكثر تصابيا من الأخرى الفتاة أم أنها ، فكتاهم ارتدينا سراويل جينز وأحذية رياضية أما أصابع الوجه والأظافر والإكسسوارات فهي لافتة مكتوب عليها بالخط العريض النساء لحم على وضم إلا ما ثُب عنده .

تحدثت بلغة هجينة عرنية مزجت لغة الضاد بلغة المستعمر ، قالت الأم :

- هل ترين ذالك المحتال؟

- لا إنه ليس هنا؟

- أرجو أن يتغيب عن المقابلة و ينتهي الأمر .

- لماذا أنت مرعوبة؟ ذالك الصباغ المتسلول يرغب في بعض الدر衙م ، أعطوه لها و ننتهي .

- لا يا نسرين لن يحصل على درهم واحد ، و ما ساعطيه له أعطيته لمحامي مختص في التعامل مع تلك النماذج .

طلت المرأتان تتحدىان من دون أن تعلمَا أن صاحبها يستمع ، قام ابن المرأة العجوز و طلب مني أن أنتبه إلى أمه إلى حين عودته ، وافقت على شرط أن لا يتأخر ، دمعت عينا العجوز بعد أن ذهب ولدتها و وضع يدها على صدرها و كأنها أحست بحرقة مفاجئة ، تعجبت من فعلها فصرفت انتباхи إليها و أعرضت عن الترثارتين ، و من دون أن أسأل كشفت عن سبب لوعتها فقالت :

- مات زوجي و لم يترك لنا سوى شقة مكتراة في حي الحفارين ، حاول مالكها طردنا عن طريق المحكمة و لكنه فشل و حكمت له المحكمة بزيادة في مبلغ الإيجار بنسبة خمسين في المائة فصرنا ندفع له سبعمائة و خمسين درهما شهريا .

توقفت عن الكلام و نظرت إلى الجهة التي ذهب منها ابنها و لما تيقنت أنه لا يزال بعيدا اطمأنت و استأنفت :

- فلجاً صاحب البيت للمكر و طلب منا أن ندفع واجب الإيجار كل سنة بدل كل شهر و ذلك لأنه يقطن بفرنسا و لا يزور المغرب إلا كل سنة ، أخذ مستحقات هذه السنة ، و في الوقت الذي كنا ننتظر منه تسليمنا التوصيلات سجل دعوى قضائية ادعى فيها أنه لم يحصل على مستحقاته لمدة اثنتا عشرة شهرا ، تعاطفوا معنا هنا و أبلغونا أنه إن لم يحصل على مستحقاته في مدة لا تتجاوز ثمانية وأربعين ساعة فسيصدر حكم نهائي بالإفراج الفوري ، و نحن لا نستطيع توفير هذا المبلغ في المدة المحددة .

و حكت عن ابنها الوحيد الذي يعيشها و يعول أسرته المكونة من زوجة و ابنتين ، و عن راتب قدره ألفي درهم يتقادسه مقابل عمله كحارس ليلي في المنطقة الصناعية لعين السبع ، و لم تتوقف عن الحكي إلا بعد أن لمحت محامي خصمتها يقترب منها .

قالت المرأة المتضاحية :

- هل قمت بالواجب ؟

- يؤسفني أن أخبرك أن الشاب الذي صدمته ابنته بسيارتها يا سيدة فايزة له معارف نافذين بدليل أن التقرير الطبي بالإضافة إلا تقرير الشرطة يصبان في مصلحته ، و الحل الأمثل في هذه الحالة هو الصلح .

نظرت إلى ابنته باستغراب وقالت :

- قلت إنه شاب بسيط يشتغل صباحا .

ردت البنت بتذمر :

- إن ذلك العفن يرغب في الدراهم أعطوه لها و ننتهي من هذا الكابوس .

قال المحامي :

- إن المقابلة بعد عشرة دقائق و يجب أن نحدثه الآن ، فهل ترينـه يا نسرين ؟

نهضت و جالت ببصرها في أنحاء المحكمة و في الوقت التي ظننت أنها ستنتبه إلى خرجٍ و أقتُل نظرة على الناس الذين يقفون بالخارج ، قال المحامي بنبرة تشكيك :

– قاضي هذه القضية صديقي ، و طلبت منه إعدام الملف أو التلاعُب فيه . أتعرفين لقد قال أنه لا يستطيع مع هذا الملف بالتحديد .

قالت المرأة :

– نحن أيضاً نعرف أناساً نافذين و لن يستطيع جربو عصيّر أن يركعنا .

حضرت الفتاة و ابن السيدة العجوز في نفس الوقت ، كان مهموماً و شارد الذهن ، جلس في مكانه من دون أن يتكلم ، هممت بالوقوف فانتبه إلى تصرفه و شكرني ، قلت بعد أن وقفت قبالة خصمي :

– لقد أسعدي الحديث مع والدتك .

أعاد شكري مع ابتسامة عفوية أبَقَت من رق الغم الذي تسربلت به ملامحه ، انتبهت الفتاة لي و ركزت بصرها عليّ بذهول ثم أمسكت بذراع أمها و قالت :

– إنه هو .

قالت الأم :

– الصباغ ! أين هو ؟

أشارت الفتاة لي بحواجبها . اندهش الثلاثة ، ولم يظهر عليهم أي أثر للحرج ، قال المحامي :

– تشرفت بلقائك سيد شعيب .

حملقت فيه من غير أن أنبش بحرف واحد . قالت المرأة و عينيها مركتان على عالمة لوبي فيتون على سترتي :

– أعتذر سيد شعيب عما بدر من زوجي في موقعة الحادث .

قلت

– لقد رمى في وجهي مائتي درهم و طلب مني الانصراف ، ولو أنه رمانى بكلمة طيبة لما التقينا هذا اليوم هنا .

– أعلم أن زوجي بغل و لذاك لم أصبحه معي اليوم .

قالت :

– و أنا أيضاً علمت أنه بغل و لذاك حرست على أن أكون هنا اليوم .

قالت الفتاة :

- لا تشنتم والدي .

لم أجبها ولم أنظر إليها . قالت:

- لقد كنت في ذلك اليوم منزعجة و لذاك تصرفت بتلك الطريقة .

لم أتكلم ، فطن المحامي إلى مقصدي و تدارك حتى لا تتعرض لمزيد من الإحراج وقال :

- نعلم أن دراجتك تضررت و سنقوم بإعطائك مبلغًا يكفي لإصلاحها و زيادة .

و نظر صوب المرأة فقالت و كأنها انتبهت من غفوة .

- سأعطيك فوراً مبلغ ألف درهم و بعد الصلح ستحصل على ألف أخرى .

التفت إلى العجوز و ابنها و كانا ينصنان باهتمام قلت للشاب :

- لقد أخبرتني والدتك أنك تحتاج لمبلغ تسعه آلاف درهم لتسديد مستحقات سكنك .

أخرجت الأوراق النقدية من جيب سترتي و عدتها تسعه آلاف درهم أمام العيون المذهولة و أرجعت البالقي إلى جيب سترتي و قلت :

- خذها و اعتبرها سلفة ، و دون عنوانى .

دون الشاب العنوان بعد أن أخذ النقود، تهلكت أساريره و شرع يجر أمه مخافة أن أرجع عن قراره أما العجوز فلم تتوقف عن الدعاء لي إلى أن غابت عن أنظارنا . التفت صوب المرأة و المحامي و قلت:

- ماذا كانت تقول السيدة ؟

قالت :

- أنا آسفة يا بني لأننا لم نحسن التصرف معك ، و ما دمت أنك في غنى عن المال فإنني أرجو منك أن تتنازل عن دعواك تفضلاً منك .

تدخل المحامي و أعلن أنه حان وقت المقابلة ، و كانت النتيجة أن قضت المحكمة بسحب رخصة القيادة من الفتاة و حكمت لي بمبلغ ثلاثة آلاف درهم كتعويض عن الأضرار التي لحقت بالدراجة ، و بعد ستة أشهر من الحكم الأول حكمت لي نفس المحكمة بمبلغ عشرين ألف درهم كتعويض عن الإصابات الجسدية التي سببتها لي الحادثة ، و قد التقى بالسيدة فايزة بعد ذلك بمدة و كانت لي معها قصة أخرى سأذكرها في وقتها ، أما العجيب في تلك الحادثة بأكملها فهو أنه بعد ثمانية و أربعين ساعة من إعطائي المال لذاك الشاب ، زارني هو و أمه في وراثتي و رداً إلى نقودي و أخبراني أن صاحب الشقة اعترف لهما أنه كان ينوي إخراجهم من شقتهم و ليس أكل مالهم بالباطل و لذاك فإنه ترفع و أعادها إليهم و بدورهم أعادوها إلى أخذت منها سبعة آلاف و أعطيت المرأة العجوز ألفين كهدية .

و لا زلت أذكر جيدا منظر تلك الفتاة و هي تجري خلفي في نفس الوقت الذي أشرت فيه إلى تاكسي ، أوقفتني و قالت بارتباك :

– لست منزعجة من الحكم الذي صدر ، و الذي يزعجني هو تجاهلك لي ، ما حدث كان سوء تفاهم و أنا لست كما تظن و سنصلاح الأمر ، و أرجو منك أن تصحبني إلى ماكدونالدز و أنا من ستدفع .

ركزت بصري على السيجارة المثبتة بين السبابية و الوسطى و صعدت إلى التاكسي ، وقلت قبل أن أغلق الباب دونها :

– علمي والذي أن لا أصطحب التافهات .

هذا ما كنت أبحث عنه

الثلاثاء الثاني عشر من شهر أكتوبر ، زارتني فيه سناء قبيل العصر ، كانت سعيدة و تشرّر على غير عادتها ، حكت لي عن أيام طفولتها التي قضتها في بيت عمتها خديجة أمزار ، و كيف كان حمزة يسرق سيارة السيد عبد القدس و يتوجهون بها إلى شاطئ عين الزياب ، و عن الشجارات التي كان يفتعلها أبناء عمتها مع أولاد أجانب و تنتهي دائماً بانتصار آل مرواني ، و تكلمت عن لحظات التسامر في الليالي الصيفية ، وعن غباء أحمد عندما يتعلق الأمر بالأحاجي ، و عن هستيريا الضحك التي كانت تتنتاب عادل ، و تحدثت عن براعة منير في الرسم ، و كيف أنه كان يرسم أشياء جميلة جداً باستخدام قلم الرصاص فقط ، كانت تتكلم و تص狂ك ، سألتها عن سبب سعادتها ، قالت :

– لقد كنت أخشى أن تبلغ خديجة عاماً و نصف ، و قد بلغتها ليلة البارحة ، و الآن أنا أستعجل تقدمها في السن لأنني أريد أن أجعل منها حين تكبر صديقتي ، بل صديقتي الوحيدة .

– ألا تفكرين في الزواج مجدداً؟

حركت حاجبيها للأعلى و قالت :

– هل تفكرين في زوجة ثانية؟

– إذا كانت تشبهك فالامر لا يحتاج إلى تفكير .

احمر وجهها خجلاً و ضحكت ثم قالت :

– من تشبهني لن تقبل بك لأنك تفتقد للوفاء .

– ربما .

شربت كوب الشاي الذي قدمته لها و أبدت إعجابها بتقدم مشروع الوراقة و صعدت إلى شقتها ، بقيت فيها لحوالي ساعة ، ثم نزلت و قطعت الشارع و عادت برفقة تلك المربية تحمل خديجة ، و دعنتي و غادرت .

في صبيحة اليوم التالي و عند الساعة التاسعة صباحاً وقفت سيارة أجرة في الجهة المقابلة من الشارع ونزلت منها مربية خديجة ، و فور مغادرة السيارة تحلق مجموعة من النساء حول المرأة البدينة التي كانت تتوه و تلطم ، تسمرت في مكاني و انتظرت إلى أن عاد مبارك بالخبر الصادم ، لقد انتحرت سناء ، لم استطع استيعاب الخبر و رفضت التصديق ، و ظللت جالساً في مكاني مصر على جحود الخبر ، تحلق الناس في مجموعات يتحدثون عن غرابة موت مصطفى أمزار و أخته و ابنة أخيه في مدة وجيبة ، تبادل مبارك الحديث مع الأخ الأصغر للمرأة البدينة و عاد بالخبر اليقين .

في الليلة الفائتة كانت سناء سعيدة وقد قامت بإعداد العشاء بنفسها ، ثم شغلت على جهاز الفيديو مسرحية مدرسة المشاغبين و بقيت تتفرج و تضحك إلى حدود منتصف الليل ، ثم خلدت للنوم ، و بحلول الساعة الثالثة صباحا ، أيقظت المربيّة وطلبت منها أن تغير حفاضة و ملابس خديجة ، و لما سألتها إذا ما كانت تتوي الخروج في تلك الساعة المتأخرة قالت أنها ستقوم بأخذ خديجة إلى مكان بعيد لن يستطيع مصطفى الوصول إليه كانت تتصرف بجدية و بثبات و فشلت محاولات المربيّة في منعها من الخروج ، و بحلول السابعة و النصف صباحا حضرت الشرطة إلى الشقة و اقتادت المرأة إلى مخفر مجاور و بعد تحقيق روتيني أفرج عنها ، و قد علمت أثناء التحقيق أن سناء ألت نفسها و هي تحمل ابنتها تحت عجلات القطار القادم من فاس و المتوجه إلىمراكش و كان ذلك على مشارف مدينة برشيد التي تبعد عن البيضاء مسافة نصف ساعة .

اتصلت بعثمان و سألنا عن المشرحة التي أخذ إليها جثمان سناء و ابنتها ، وجدت هشام أمزار يجلس خارج المشرحة مسندًا ظهره إلى إطار سيارة والده و الدموع تنهر من عينيه ، أشفقت عليه لمصابه و في نفس الوقت حسته عن تلك الكمية الكبيرة من الدموع التي تيسرت له بتلك السهولة ، في الداخل كان خليفة مختلفا تماما عن خليفة الذي رأيته يوم وفاة مصطفى ، لقد كان حزيناً بصدق وليس كما كان يصطنع عند وفاة السيد عبد القدس و كذلك عادل و صفية وحمزة ثم مصطفى بعد ذلك ، وجدته يجلس على كرسي في ممر المشرحة و يحاول جاهداً كبح دموعه من دون جدوى ، و كأن البكاء بالنسبة إليه شيء غير مقبول ، جلست عن يمينه و همت بتقديم التعازي له ، طلب مني أن أسكّت قبل أن أكمل أول كلمة . حضرت طبيبة تحمل بعض الأوراق و طلبت منه التوقيع ، ثم قدم رجلان و قدما إليه التعازي وأعربا عن استعدادهما لتقديم خدماتهما ، نادى عليه موظف تابع للمشرحة و قبل أن يتحقق به التفت إليّ و قال :

– لقد كنت أعلم أن لك علاقة بموت مصطفى بطريقة أو بأخرى ، و لم يغضبني ذلك لأنني كنت أتمنى موته ، ولكن أعلم يا صعلوك أي سأحرص على أن تغادر هذه الحياة قبلي ، لأنك ادعيت باطلاً قدرتك على حماية سناء و قد وثقت بك المسكينة .

اندهشت لأنه كان على علم بما يحصل ، و تألمت لأنه كان صادقاً فيما قال .

أثناء مراسم الدفن التي تمت عند الساعة السادسة مساء راجت بعض الأقوال على أن سناء تركت في حقيبتها رسالة أبلغت فيها عن سبب انتحارها ، لم أستطع الأكل و لم أرغب في الكلام مع أي أحد ، حاولت النوم و عجزت ، لقد كنت أتألم من دون أن أنجح في تحديد منبع الألم ، لم أكن أعرف إذا ما كان السبب هو حزني على سناء و ابنتها ، أو أنه خوفي من العدو الغامض ، أم أنه ندمي على اقتحامي البرزخ الفاصل ما بين المعلن و المستور ، أو لعله خوفي من أصير وحشاً فالأمر ليس مستحيلاً و كل ما يحتاجه هو أن تبتعد عن إنسانيتك شيئاً فشيئاً إلى أن تتحول تدريجياً إلى وحش من دون أن تلاحظ الفرق .

غفوت قبل الفجر قليلاً فرأيت صفية تحمل خديجة الصغيرة بين ذراعيها ، قالت :

– ليس ذنبك يا شعيب ، إنه ذنبه .

و أشارت بسبابتها إلى كرسي السيد عبد القدس ، التفت صوب الكرسي فوجده يجلس عليه ، انتبهت من نومي فوجدتني أنظر إلى الكرسي الشاغر ، عند الفجر استقلت القطار من محطة الوازيس إلى

محطة بوسكورة ، ثم سبارة تاكسي من بوسكورة ونزلت في منطقة تقع بين مدينة برشيد و بلدة بومعizza ، ومشيت إلى أن وصلت إلى المكان الذي ماتت فيه سناe ، كان ممرا على سكة الحديد مخصص للسيارات ، تمشيت فيه جيئة و ذهابا لعدة مرات ، ثم جلست على قاعدة إسمنتية خاصة بعمود كهرباء تابع لسكة ، لم أعرف سبب قدومي لذالك المكان ، وبقيت على تلك الحال إلى أن تقدم نحو واحد من الرعاة الذين كانوا ينظرون إلى من بعيد باستغراب ، اقترب مني بحذر و قال :

– هل تريد الانتحار يا هذا ؟

قلت

– لا ، أنا أبحث عن شيء يخصني .

و لما سأله عن سبب سؤاله قال :

– في فجر اليوم الماضي أحضرنا أغنانينا إلى هذا المكان قبل بزوغ الفجر ، و وجدنا سيارة بيضاء من نوع بيجو مركونة في ذالك المكان ، و بعد زوال الظلمة بقليل نزلت منها سيدة شابة جميلة تحمل ابنتها و جلست على هذه القاعدة التي تجلس عليها الآن ، ففتحت علبة بسكويت أكلت قطعة و أطعمت ابنتها البالقى ، و فيما كنا نختلس النظر إليها سمعنا صوت قدوم أول قطار ، قامت و هي تحضن ابنتها وتتوسطت السكة و بدأت تسير في نفس اتجاه القطار مولية ظهرها إليه ، ظننا أنها ستخرج من بينقطابان الحديدية فور اقتراب القطار لكنها لم تفعل ، لقد حزنا كثيرا على تلك الطفلة الصغيرة و المرأة أيضا فقد كانت شابة و جميلة . و لكنك لم تخبرني عن الشيء الذي تبحث عنه .

كافكفت دموعي ، و قلت :

– هذا ما أبحث عنه .

– البكاء !

– أجل .

نهاية المحطة

عدت إلى الورقة و ارميـت على السرير، ثم شرعت في التهام قطع البسكويـت الذي أحضرته معي ، تذكرت السيد عبد القدوـس و صفيـة و عادل و حمزة ثم سناء ، تسأـلت بصوت مسمـوع :

– من سيكون التالي ؟

همـست صفيـة :

– منـير .

و جـدته يجلس على نفس اللـبنة ، كان قد فقد ما يقارب نصف وزنه و بد كـهيكـل عـظـمي بـمـلـابـس مـتـسـخـة و أـظـافـر طـولـية ، ابـتسـمـ لـما رـأـيـ و قال :

– هل التـقـيـت بـعـد المـالـك شـروـاط ؟

– لم تـكـن هـنـاك أي وـصـيـة ، و كل ما فـي الـأـمـر هو أنـ والـدـكـ أـرـادـكـ أـن تـلـمـ تـارـيخـ أـسـرـتكـ .

– أـلمـ يـقـلـ لـكـ شـيـئـا آخر ؟

– إـنـهـ مـسـتـعـدـ لـأـنـ يـعـطـيـكـ كـلـ ماـ تـرـغـبـ فـيـهـ مـنـ أـمـوـالـ عـلـىـ شـرـطـ أـنـ لـاـ يـتـجـاـوزـ الـطـلـبـ ثـلـثـ مـمـتـكـاتـهـ .

ابـتسـمـ وـقـالـ :

– إـنـهـ حـذـرـ كـعـادـتـهـ فـأـنـاـ أـعـلـمـ تـارـيخـ أـسـرـتـيـ مـنـ نـعـومـةـ أـظـافـرـيـ ، وـ أـعـلـمـ أـنـيـ آخـرـ خـادـمـ لـآلـ مـرـوـانـيـ .

– وـ لـمـاـذاـ كـذـبـ عـلـيـ ؟

– لـقـدـ أـخـبـرـكـ بـالـوـصـيـةـ ، فـقـدـ أـوـصـىـ أـبـيـ أـنـ أـسـتـقـلـ بـنـصـيـبـيـ مـنـ ثـرـوـةـ آلـ شـرـوـاطـ وـ هـوـ الـثـلـثـ مـاـ يـمـلـكـونـ .

– إـنـهـ دـاهـيـةـ .

لم يـنـتـبـهـ لـكـلـماتـيـ الـأـخـيـرـةـ ، كـانـ يـحـمـلـقـ فـيـ شـيـءـ مـاـ خـلـفـيـ ، قـلـثـ :

– وـ كـأنـكـ تـنـتـظـرـ خـطـبـاـ ماـ ؟

قال من غير أن يصرف نظره عن الجدار خلفي :

– أـجلـ .

- هل علمت بأمر سناء ؟

- لقد أخبرني عادل بالأمر ليلة البارحة ، و كذلك

توقف عن الكلام و ابتسم ، استدرت لأعرف إلى ماذا ينظر ، وجدت على الجدار رسمًا بالفحم لصفيحة المرواني ، لم يخطئ شيئاً من تفاصيل ملامحها ، حتى نظرتها الحزينة و ابتسامتها المصطنعة ، كُتب على يمين الرسم بخط الرقعة .

أنا خادم وضعتم له قيود

أنا عبدٌ

أنا ظلٌ

أنا إرثٌ

أنا الموت

أنا عاشقٌ رسمت له حدود

أنا حزنٌ

أنا يأسٌ

أنا عجزٌ

أنا الصمت

ارتطم شيء بالأرض في الطابق السفلي ، قلت :

- هل حضر أصدقائك ؟

- لقد حضرت نهاية حربى .

- لم أفهم ؟

- أشكرك عن الخدمات التي قدمتها لي ، انتبه لنفسك .

تدكرت همس صافية الأخير ، قلت :

- الوداع يا صديقي .

و لِمَا ولَيْتَهُ ظَهَرَى قال :

- لقد بدأت حربك يا شعيب إنه ينتظرك تحت في أسفل الدرج .

الفهرس

5	الإهادء
7	سيدي القارئ
9	بداية المحطة
15	من لا يفكر لا يغادر القطيع
19	الخطر لا يحique إلا بالذين يتكلمون
25	هل انتهت رحلتك مع يوهان
31	انصرف الشهود
37	إنها الحقيقة رغم غرابتها
43	أو لم يخبروك أنه يجب عليك أن لا تسأل
47	ابحث عن دمياني
51	يقول لك الأسياد
57	من يحاول كشف وجودهم يتم إسكاته
61	سيكون لك أولياء و أعداء
65	أقصد القلب
71	كل ذي عقل ضعيف هو ضحية لنا
77	سيد الصناديق
81	عقدت اجتماعات سرية
87	لا يمكن رؤية ما خلفه
91	اللغز الذي تمنى برنارد شو أن يجد له حل
97	تجاوز التصديق و المهوس ليصل إلى الجنون

103	العالم الحقيقي مخيف
109	العدو الغامض يتربص بك
113	يستحيل أن تدفن الأسرار مع الجثث
117	لا بأس أن تعلم أنها مخطوطة
123	عرض سينمائي أقيم من أجلها
129	الوقت هو أثمن شيء على هذه الأرض
135	بل الإغراق المعلوماتي
139	بدور فرنسا
147	هذا ما كنت أبحث عنه
151	نهاية المحطة
153	الفهرس

اهذري يا شعيب أن تسليب إرث آدم وتفقد القدرة
على تسيية اليسicians بأسئلتها الصاكيبة